جولة
مع ضياء الدين بن الأثير
في كتابه
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

الأستاذ
أحمد محمد عنبر

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

الإهداء

إلى والدى العزيز الذى شقى فى سبيل إسعادى ،

وحمل نفسه ما لا تطيق ليسر لى حظ التربية والتعليم

أهدى أول إنتاج أخرجه للناس .

أحمد محمد عنبر

تقدمة الكتاب

بقلم

الأستاذ السباعى بيومى

أستاذ الأدب العربى بمعهد الدراسات العليا
ووكيل كلية دار العلوم (سابقاً)

سألنى تلميذى النابه « أحمد محمد عنبر » أن أطلع على كتيّبه فى التعريف بابن الأثير الموصلى ، ومنهج بحثه فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فقرأته ، ولم أكد أنتهى منه حتى وجدت من الحق للتلميذ على الأستاذ أن أقدم له .

بدأ السيد « عنبر » كتابه بترجمة قصيرة لضياء الدين بن الأثير ، تناوله فيها على إيجازها من نواحى : نسبه ، وأسرته ، وبلده ، ونشأته ، وحياته ، وسيرته ، ولم يفته فى هذه السيرة أن يتناول كراهة الناس له ، وتبرمه بهم ، غير مغفل تجلية الأسباب لتلك الكراهية ، لما نشأ عنها من عدم استقرار ابن الأثير فى بلده ، ومن كثرة تقلبه فى غيرها ، وإنما كان ذلك منه لما له من أثر فى نفسه ، ظهرت عوارضه على كثير من أبحاث كتابه .

وقد تعرض فى هذه الترجمة أيضاً لمعاصرة ابن خلكان له ، وإن كان لم يلقه على زغبة منه فى هذا اللقاء ، وذكر رأى ابن خلكان فى هذا الكتاب وفى مبتكرات ابن الأثير فيه ، كما ذكر تناوله ببعض المآخذ عليه .

وما أسرع ما دلف من هذه الترجمة إلى الكتاب نفسه ، فأقبل على التعريف به إقبال من قرأ فعرف وخبر ، وحقق ونظر ، وقد ساعده على ذلك ويسر له ، أن الكتاب محكم التقسيم إلى : مقدمة ، وخاتمة ، بينهما مقالتان ، وعلى هذا الترتيب سار فى التعريف .

تناول قبل المقدمة الخطبة ، فوضع إصبعه على أبرز عنصر فيها ، وهو الذوق السليم ، الذى جعله ابن الأثير أنفع فى البيان من ذوق التعليم ، وكان ينبغى أن يعقب بمثل هذا القول « إن صح أن يكون للتعليم كالأدب ذوق » ، وقد أخذ عليه فيها أنه مع إعجابه بالآمدى فى كتابه « الموازنة » وبالخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » لم يسلم هذان الأديبان من مؤاخذة ابن الأثير ، وأخذ المؤلف عليه مأخذاً أصاب فيه .

ثم عمد إلى المقدمة فذكر أن الموصلى بناها على أصول علم البيان فى عشرة فصول ، ومنها انتقل إلى المقالة الأولى ، فذكر بحثها فى الصناعة اللفظية فى فصول ثمانية ، وإلى المقالة الثانية فذكر أنها تبحث فى الصناعة المعنوية فى ثلاثين نوعاً منها .

ومن هذا الإجمال خرج إلى التفصيل لكل ما سبق حتى وصل إلى الخاتمة التى عقدها الموصلى لذكر شرف البيان ، وعرض رأيه فى إعجاز القرآن ، ثم عقد فصلا أخيراً نوه فيه فى إيجاز وتركيز بكتاب « المثل السائر » وفضل طريقته المخالفة لطريقة السكاكى ، وبعد ذلك أدلى بمراجع بحثه .

وبعدفقد قرأت ما فصل ، وكان يطيب لى أن أتكلم عنه بالتفصيل لولا نفور التقدمات من مثل هذا الإطناب ، ولذلك فإنى مكتف بتصوير الأثر الذى قر فى نفسى من القراءة فى صورة مصغرة أجملها فى هذه الفقرات :

١ — كان المؤلف فى تعبيره عن قضايا ابن الأثير جيد التلخيص ، دقيق الأمانة ، واضح الإيجاز ، كل ذلك بحال يرضى عنها ابن الأثير ، حتى يقر عينا فى جدثه ، ويهدأ فى مضجعه ، بل إلى درجة تغنى إلى حد ما عن قراءة الكتاب نفسه ، لمن لم يكن التفصيل هدفه الذى يقرأ من أجله .

٢ — عنى العناية كلها بعقد الموازنات بين هذه القضايا ومثيلاتها للأسلاف من قدامى ومعاصرين ، ولا سيما الشخصيتان اللتان كان ابن

الأثير بهما معجباً ، وعلى آرائهما مقبلا ، وهما أبو الحسن الآمدى ، وابن سنان الخفاجى ، عقدها عقد المنصف فى الحكم ، للبعيد عن الغرض والهوى ، فجاءت للحق سناداً ، وللأدب زاداً ، بقدر ما جاءت للقارئ هدى ورشاداً .

٣ — وقف من ابن الأثير موقف غير المتعصب ، لا له ولا عليه ، فشكر له ما أغنى فيه وأفاد فى غير تزيد ولا إسراف ، وأخذ عليه ما أخذ مما هفا فيه وزل ، فى غير إرهاق ولا إسفاف .

وكما بين وجه إحسانه حين أغنى بين وجه إساءته حين هفا ، ولم يفته أن يرجع كثيراً من هفوات ابن الأثير إلى اعجابه بنفسه فى شدة وغلواء ، وإلى تعصبه لبعض آرائه دون أن يأبه بما لغيره من آراء .

٤ — كان جريئا فى أدب ، ومعتداً برأيه فى تواضع ، حينما كان يتناول نقداً يراه أو يعارض رأيا يخالفه ، وإنى لأحمد له ذلك ، حتى فيما تولاه معى ببعض مباحث الكتاب .

وآخراً وليس أخيراً ، كل ناحية من هذه النواحى التى تناولت واضحة المعالم ، كثيرة الشواهد والأمثال من شأنها أن تنكشف للقارئ ، قبل أن يحاول كشفها ، وتطل إليه برءوسها ليأخذ بأياديها ، ولهذا صدفت عن المثال أضربه ، والشاهد أورده .

* * *

وبعد فإننى أهنىء تلميذى ببحثه ، وأتفاءل خيرا لمثل هذه الأبحاث ذلك بأنه جاء فى الوقت الذى وقع فيه اتجاه واسع المدى لمناحى الأدب فى المنهج الثانوى الجديد .

حتى لقد كان من هذا الاتجاه ، تخصيص حصص ثلاث للأدب الإضافى الذى يستأثر به القسم الأدبى ، دون العلمى ، يدرس فيها طلابه

كل سنة كتابا من كتب الأدب القديم أو فصولا من كتاب ، ثم موضوعا من موضوعات الأدب يتدرجون فى دراسته مع العصور .

فالسيد « عنبر » بما حاول اليوم ، قد ضرب مثلا بارزاً فى الناحية الأولى يفيد الدارسين ، ويبين المنهج للمدرسين ، فسد بذلك إحدى الثغرتين .

وإنى لأهيب به أن يسد الثانية بتناول موضوع ينهج فيه النهج المذكور ، حتى يظفر بالثمرتين ، ويكون قد نال الحسنيين ، وإنه لفاعل ، إن شاء الله ، بتعجيل الإجابة ، إتماما للإفادة ، كما هو عهدى به ، وأملى فيه • له من الله توفيق ، وسداد ، إن شاء الله ، وعليه سلام ؟

١٩٥٤/٧/٢٩ — ع . بيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

منهج البحث

أستطيع هنا أن أصف منهج البحث قبل أن أبدأ فما دمت سأقوم بجولة مع ابن الأثير فسأعرض أولا ترجمة حياته لأعرف رفيق قبل الرحلة ، وما دامت الجولة فى كتابه فسأسير معه فيه بابا بابا وفصلا فصلا واقفا عند ما يتفق فيه أو يختلف مع غيره لأوازن وأرجح .

وأخيرا أتحدث عن مميزات الكتاب باختصار بعد أن أكون قد عرضت أهم ما فيه مما يفيدنا فى الدرس والنقد .

(٢)

ترجمة ضياء الدين (١)

نسبه : هو الشيخ الإمام والعلامة الهمام ضياء الدين أبو الفتح نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافعي . . . كما فى عنوان كتابه طبعة بولاق سنة ١٢٨٢ ﻫ الموافقة لسنة ١٨٦٦ م تقريبا ، وكما فى طبعة المطبعة البهية بحوش قدم سنة ١٣١٢ ﻫ الموافقة لسنة ١٨٩٥ م تقريباً .

وزاد ابن خلكان بعد عبد الكريم . . . ابن عبد الواحد الشيبانى وقال عنه إنه هو المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب ضياء الدين ولم يذكر نسبة الموصلي وذكر أن كنية أبيه أبو الكرم .

أخواه : هما مجد الدين أبو السعادات المبارك المحدث توفى سنة ٦٠٦ ﻫ وأبو الحسن على المعروف بابن الأثير الجزرى أيضا والملقب عز الدين وهو صاحب تاريخ الكامل المشهور توفى سنة ٦٣٠ ﻫ

بلده : هى جزيرة ابن عمر نسبت إلى بانيها عبد العزيز بن عمر وقيل إنها جزيرة أوس وكامل ابنى عمر بن أوس الثعالبى (٢) . وقال صاحب القاموس (٣) : « وجزيرة ابن عمر بلد شمالى الموصل ويحيط به دجلة مثل الهلال » وهذا يرجح النسبة الأولى .

نشأته وثقافته : نشأ بالجزيرة التى ولد بها ثم إنتقل مع والده وأخويه إلى الموصل وبها اشتغل وحصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان وشيئاً كثيراً لا يحصى من الأشعار ثم اقتصر منها كما قال فى كتبه على أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى وأجاد حفظها حتى استغنى بهم عن غيرهم .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٣٤٧ ، ٣٧٠ ج ١ ، ١٥٨ ج ٢

(٢) ابن خلكان .

(٣) فى مادة « جزر » .

عمله فى الدولة الأيوبية :

مع صلاح الدين : لما كملت لضياء الدين الأدوات قصد[١] إلى حضرة صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر سنة ٥٨٧ فوصله القاضى الفاضل رئيس ديوانه بالعمل عنده فى نفس السنة وأقام فى عمله أشهراً .

مع الملك الأفضل : ولقد طلبه الملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين وولى عهده بدمشق فخيره صلاح الدين بين البقاء والذهاب مع إبقاء المرتب المقرر له جاريا عليه فاختار ولده الأفضل وكان يومئذ شابا مثله فاستوزره وحسنت حاله عنده .

استقلاله بالوزارة : ولما توفى صلاح الدين اختلف أبناؤه ولم يستقر أحدهم فى بلد ، فقد استقل ابنه الأفضل بدمشق فى أول الأمر واستقل ضياء الدين معه بالوزارة ولكن دمشق أخذت من الأفضل فانتقل إلى صرخد[٢] .

كره الناس له : ولما كان ضياء الدين قد أساء العشرة مع أهل دمشق فقد هموا بقتله ، فأخرج مستخفياً فى صندوق وصار إلى الأفضل فى صرخد .

تقلبه فى البلاد : لما استدعى الملك الأفضل إلى مصر للنيابة عن ابن أخيه الملك المنصور صحبه ضياء الدين ولما أخذ الملك العادل الديار المصرية وعوض الملك الأفضل عنها خرج من مصر ولم يخرج معه ضياء الدين لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ، ثم خرج منها مستتراً وله فى كيفية خروجه رسالة طويلة .

---

(١) ابن خلكان

(٢) بلدة بالشام .

ولقد غاب عن مخدومه الملك الأفضل زمناً حتى إذا علم باستقراره أخيراً فى سميساط[1] على الفرات من جهة حدود الروم عاد إلى خدمته وأقام عنده مدة ثم فارقه سنة ٦٠٧ هـ .

واتصل بأخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولم ينتظم أمره وخرج منها مغاضباً .

وعاد إلى الموصل فلم يستقر حاله ، فورد أربل سنة ٦١١ فلم يستقم حاله كذلك فسافر إلى سنجار .

استقراره : ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامة واستقر وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود ابن نور الدين سنة ٦١٨ .

رغبة ابن خلكان فى لقائه : ذكر ابن خلكان أنه كان يود الاجتماع بضياء الدين بالموصل حين زارها ليتلقى شيئاً من علمه ولما كان بينه وبين والد ابن خلكان من مودة أكيدة فلم يتفق له ما أراد .

وفاته : توفى بإحدى الجماديين وقيل فى ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ببغداد وكان قد توجه إليها رسولا من قبل صاحب الموصل ودفن بمدافن قريش بمشهد موسى بن جعفر — رضى الله عنهما —

ابن الأثير والقاضى الفاضل : كان ضياء الدين يعارض القاضى الفاضل فى رسائله فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات .

شعره : لم يكن له فى النظم شىء حسن كما يقول ابن خلكان وقد أورد مثالا من شعره .

كتابه المثل السائر : قال عنه ابن خلكان إنه جمع فيه فنون الكتابة والشعر وقال إن نسخة منه ، وصلت إلى بغداد فتصدى لمؤاخذته والرد

---

(١) وقد توفى فيها الملك الأفضل سنة ٦٢٢ هـ .

عليه ابن هبة الله المدائنى فى كتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر. قال فيه أخو المدائنى هذا

المثل السائر يا سيدى ألفت فيه الفلك الدائرا
لكن هذا فلك دائر تصير فيه المثل السائرا

رأى ابن خلكان فى ابتكاره : روى ابن خلكان لضياء الدين رسالة ذكر فيها السواد شعار بنى العباس منها « . . . ولم يجعل شعارها لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم . . . » ورد عليه قوله إنه اخترع هذا المعنى بأنه ورد فى سينية ابن التعاويذى التى أنشدها سنة ٥٧٥ ومنها

ورأى الغانيات شيب[1] رأسى فأعرضن وقلن السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد وقد أضحى شعاراً على بنى العباس

وقال : فضياء الدين إن كان زاد على المعنى فابن التعاويذى هو الذى فتح الباب .

ثم تحدث ابن خلكان كثيراً عن أخذه فى رسائله وشعره

والخلاصة أن ابن الأثير كاتب شاعر ناقد أديب وتظهر هذه المواهب مجتمعة فى كتابه هذا الذى نرافقه فى أبوابه وفصوله

(١) لا يستقيم وزن البيت إلا بحذف كلمة فيكون « ورأى الغانيات شيبى فأعرضن . . .

(٣)

جـــولة

مع ضياء الدين فى كتابه المثل السائر

(١)

خطبة الـكتاب[1]

ذكر فيها أن مدار البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم، وأن كتابه إن كان أستاذاً فيما يأتى به إلاأن الدربة والإدمان أجدى على الناظر فيه المتعلم منه وأنفع

« فخذ من هذا الـكتاب ما أعطاك واستنبط بإدمانك ما أخطاك »

وقد جعل نفسه فيه كمن طبع سيفا للقتال وليس عليه أن يخلق القلب للمقاتل ، وهو يضع علم البيان بالنسبة لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام .

إعجابه بالآمدى والخفاجى :

ولم يعجبه ممن سبقه إلا الآمدى فى الموازنة وابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة .

وفضل كتاب الموازنة « لأنه أجمع أصولا وأجدى محصولا »، ويرى فى سر الفصاحة « نكتا منيرة »، ولـكنه يرى أن صاحبه أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف . . ومن الـكلام على اللفظة المفردة ومن مواضع يرى الصواب قد شذ عنه فيها

وكلاهما فى نظره « قد أهمل من هـذا العلم أبوابا ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشورا وتركا لبابا ».

---

(١) ص ١ من المثل السائر .

وسنلاحظ عليه فيما بعد أنه يستفيد من بحوث الخفاجي في الأصوات وينقد بعض الألفاظ الثقيلة النطق نقداً لا تعليل له إلا قرب مخارج الحروف كلفظ « مستشزرات » كما قال الخفاجي وسيتكلم هو عن اللفظة المفردة التي غاب عليه الكلام فيها .

(ب)

مقدمة الكتاب[١]

وتشتمل على أصول علم البيان وقد بناها على عشرة فصول هي :

١ — علم البيان .
٢ — آلاته وأدواته .
٣ — الحكم على المعاني .
٤ — الترجيح بين المعاني .
٥ — جوامع الكلم .
٦ — الحكمة التي هي ضالة المؤمن .
٧ — الحقيقة والمجاز .
٨ — الفصاحة والبلاغة .
٩ — أركان الكتابة .
١٠ — الطريق إلى تعلم الكتابة .

(حـ)

مقالتا الكتاب[٢]

وتشتملان على فروع علم البيان ، فالمقالة الأولى في الصناعة اللفظية ، والثانية في الصناعة المعنوية .

أما المقالة الأولى في الصناعة اللفظية فتشمل قسمين : قسما في اللفظة المفردة التي أنكر على الخفاجي أن يتحدث فيها . وقسما في الألفاظ المركبة تحدث فيه عن أنواع ثمانية هي :

١ — السجع — وقد تحدث عنه ابن سنان من قبل .

---

(١) ص ٣ من المثل السائر .
(٢) ص ٣ من المثل السائر .

٢ — التجنيس — سبق فى العمدة و فى الصناعتين .

٣ — الترصيع — سبق فى سر الفصاحة وفى الصناعتين .

٤ — لزوم ما لا يلزم — سبق فى سر الفصاحة .

٥ — الموازنة — ذكرت فى الصناعتين باسم الازدواج .

٦ — اختلاف صيغ الألفاظ — جاءت فى الصناعتين باسم المختلف والمؤتلف .

٧ — المعاظلة اللفظية — سبقت فى العمدة وعند الآمدى .

٨ — المنافرة بين الألفاظ .

وأما المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية فتكلم فيها عن ثلاثين نوعاً هى :

١ — الاستعارة — ذكرها الخفاجى وابن رشيق والآمدى .

٢ — التشبيه — فى العمدة وفى الصناعتين .

٣ — التجريد .

٤ — الالتفات — فى العمدة والصناعتين .

٥ — توكيد الضميرين .

٦ — عطف المظهر على ضميره والإفصاح به .

٧ — التفسير بعد الإبهام — فى العمدة وسر الفصاحة والصناعتين

٨ — استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات .

٩ — التقديم والتأخير .

١٠ — الحروف العاطفة والجارة .

١١ — الخطاب بالجملة الاسمية والجملة الفعلية والفرق بينهما .

١٢ — قوة اللفظ لقوة المعنى .

١٣ — عكس الظاهر — ذكر فى الصناعتين .

١٤ — الاستدراج .

١٥ — الإيجاز — ذكر فى العمدة وسر الفصاحة والصناعتين .

١٦ — الإطناب — ذكر فى الصناعتين .
١٧ — التكرير — « فى العمدة .
١٨ — الاعتراض — « فى الصناعتين .
١٩ — الكناية والتعريض — ذكرا فى العمدة وسر الفصاحة والصناعتين.
٢٠ — المغالطات المعنوية .
٢١ — الأحاجى — فى سر الفصاحة .
٢٢ — المبادى والافتتاحات — فى سر الفصاحة والعمدة .
٢٣ — التخلص والاقتضاب — فى العمدة والصناعتين .
٢٤ — التناسب بين المعانى — فى سر الفصاحة .
٢٥ — الاقتصاد والتفريط والإفراط — ذكر مايشبه ذلك فى سر الفصاحة والصناعتين باسم المساواة والإشارة والتذييل .
٢٦ — الاشتقاق .
٢٧ — التضمين — فى العمدة .
٢٨ — الإرصاد .
٢٩ — التوشيح — فى العمدة وسر الفصاحة والصناعتين .
٣٠ — السرقات الشعرية — فى الموازنة والعمدة والصناعتين .

وهو لم يذكر ما نقله من هذه المباحث وما اخترعه وما ذكرته بجوار كل نوع من سابقيه إليه قد استخرجته بالرجوع إلى الكتب المذكورة .

فلم يبق له إلا : —

المنافرة بين الألفاظ ، والتجريد ، وقوة اللفظ لقوة المعنى (وقد تدخل تحت التناسب فى المعانى المذكور فى سر الفصاحة) ، والمغالطات المعنوية وهى ما نسميه الآن بالتورية ، والإرصاد ، والاشتقاق (وهو من مباحث الصرف أو يدخل تحت التجنيس المذكور فى العمدة وفى الصناعتين) .

هذا فضلا عن : توكيد الضميرين ، وعطف المظهر على ضميره ، واستعمال

العام فى النفى والخاص فى الإثبات ، والتقديم والتأخير ، والحروف العاطفة والجارة ، والخطاب بالجملتين — فهذه من مباحث النحو بشرط أن يفهم فهما أوسع كما فهمه عبد القاهر وله عذره فى ذكرها فى البيان لأن النحو قد اقتصر على حرفية القوانين بعد عبد القاهر .

على أن ما استقل به قد يكون أخذه من كتب لم أقف عليها وكان واجبه أن يذكر ما ابتدعه كما فعل أبو هلال العسكرى فى الصناعتين حين عد خمسة وثلاثين فصلا فنبه على الستة التى ابتدعها ، أما ابن رشيق والخفاجى فلم يدع واحد منهما أنه مبتدع .

وأظنه أشار فى باطن الكتاب إلى نوع واحد هو الالتفات أخذه من القرآن الكريم وسأشير إليه فى مكانه .

والآن أعرض تفصيله للمقدمة بفصولها وللمقالتين بأنواعهما .

الفصل الأول [1] من المقدمة فى موضوع علم البيان

ذكر فيه أن موضوع كل علم هو الشىء الذى يسأل فيه عن أحواله التى تعرض لذاته : فموضوع النحو دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الموضوع اللغوى وهى دلالة عامة ، وموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وهى دلالة خاصة وراء الدلالة العامة والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن وراء النحو والإعراب وقال الا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن هنا : غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح معناها وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

(١) ص ٤ من المثل السائر

وأرى بهذه المناسبة أن أشير إلى أننا لا نزال فى مدارسنا — وكذلك فى الكتب أو الكتيبات التى تتعرض لشرح النصوص المقررة على التلاميذ — نعنى بهذا الشرح النحوى الذى عابه ابن الأثير ، وإن كنا بعد ذلك نشير إلى بعض وجوه البيان فى النصوص ولكن ذلك كله ليس الطريق الصحيح وإنما هو ما ذكرته فى بحث آخر[1] من فهم الأدب عن طريق تذوقه فى ثلاث قراءات نجول فيها مع الأديب ونحلق فى الآفاق التى حلق فيها فنتأثر بما تأثر به لتصل إلينا تجربته الشعورية كما أثرت فيه .

وبهذا الفصل يرى أستاذى السباعى بيومى[2] أن ابن الأثير خالف عبد القاهر فى مكانة النحو من الفصاحة والبلاغة لأن عبد القاهر كما هو مشهور عنه يتحدث عن نظم الكلام ثم يرى أنه ليس شيئاً غير التركيب النحوى . أما ابن الأثير فيتحدث عن شىء زائد عن النحو هو الفصاحة والبلاغة ولها دلالة أخص من دلالة النحو العامة فهو إذاً يرى شيئاً لم يره عبد القاهر .

ولقد طال على الأقلام ظلم الشيخ فى هذه القضية فلأنصفه فيها كما كما أنصفت فى « قضية الأدب » أبا هلال العسكرى ممن اتهموه بأنه من أدباء اللفظ والعبارة دون المعنى .

فأقول : إن عبد القاهر يتحدث كثيراً حقاً عن نظم الكلام وأنه شىء وراء لفظه ومعناه ويسمى ذلك صورة الكلام وهى شىء ثالث وراء اللفظ والمعنى كما شرحت ذلك فى « قضية الأدب » ، ودللت عليه .

وتحدث عن أن نظم الكلام ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأحواله ، وكل ذلك مشهور من كلامه .

---

(١) قضية الأدب بين اللفظ والمعنى للمؤلف

(٢) صحيفة دار العلوم العدد الرابع من السنة الرابعة عشرة .

ولكن رأيى أنه بذلك إنما كان يوضح طريقاً عملياً لفهم النظم فطالما نعى على من يتكلمون كلاماً خيالياً ويأتون باصطلاحات مبهمة غير محدودة فأراد أن لا يترك عبارة « نظم الكلام » مبهمة فقربها بأنها متمثلة فى رعاية التركيب النحوى ومتوقفة عليه .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يرى جمالا ولا دلالة وراء دلالة النحو ولا يرى معانى غير معانى النحو .

وقد كان استعماله لكلمة « معانى النحو » هو الذى أدخل عليه اللبس عند من ينظر فى كلام له صريح سأورده هنا دليلا على أنه يرى شيئا وراء معانى النحو ، ومعانى غير معانيه .

يقول أولا [١] : « النظم متوقف على التركيب النحوى » .

ويقول [٢] « ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله . . . فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو أصيب به موضعه أو عدل عنه » ومثل للمعدول عنه بقول الفرزدق .

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

ولكنه يقول [٣] فى مكان آخر ما ينصفه ويرد إليه اعتباره فى هذه المسألة « وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها واعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى نفسها

(١) ص ٢٤ من دلائل الاعجاز .
(٢) ص ٦٤ من « « .
(٣) ص ٦٩ من « « .

[أى فى نفس معانى النحو] ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض :

فالتنكير [وهو من معانى النحو] إذا راقك فى عبارة قد لا يروقك فى أخرى [يقصد لاختلاف الغرض] فليس هناك فضل ومزية [أى لمعانى النحو] إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذى تريد والغرض الذى تؤم »

وظاهر من هذا النص أن مدار أمر النظم ليس على معانى النحو وحدها بل على فروق ووجوه أخرى .

ثم ظاهر من النص أن هناك معانى غير معانى النحو يعترف بها عبد القاهر ويرى فى تفاوتها تفاوت الكلام .

ولكن الخلط والظلم لحقاه من استعمال كلمة « معانى النحو » التى أصبحت علماً عليه فإذا جاء بكلمة « معانى » العادية المعروفة لم ينصرف الفكر إليها مع أن كلمة «معانى» هذه جاءت فى نصه بجوار كلمة « أغراض » وهذا طبعا يعين أنها ليست من معانى النحو التى كان من الخير له أن يعبر عنها بكلمة قوانين النحو أو دلالات النحو حتى لا يحدث هذا اللبس الذى ظلم الشيخ سنين طويلة .

الفصل الثانى [1] من المقدمة فى أدوات علم البيان

يرى تلك الأدوات التى يفتقر إليها علم البيان كثيرة تشمل معرفة كل علم وفن ولكنه يرى ملاك هذا كله الطبع فإذا لم يكن ثم طبع فلا تغنى تلك الآلات شيئاً وهذه هى المرة الثانية بعد الافتتاحية التى يتحدث فيها عن الطبع وهى نظرة صادقة سليمة ويذكر دليلا على صحتها ما روى عن

(١) ص ٤ من المثل السائر .

الحريرى صاحب المقامات المشهورة حينما ولى ديوان الإنشاء ونبت فيه أياماً فأفحم ولم يستطع تأليف كتاب واحد[1] .

فإذا وجد الطبع فى الإنسان احتاج إلى ثمانية آلات هى :

١ — علم العربية من نحو وصرف .

٢ — معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ولا المستكره المعيب .

وأراها نظرة طبيعية تلك النظرة إلى تفضيل سهل الكلام وبليغه من أحد الكتاب الذين قال فيهم الجاحظ[2] :

« أما أنا فلم أر قوماً أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً ... »

٣ — معرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم فى حوادث خاصة جرت مجرى الأمثال .

٤ — معرفة تآليف المتقدمين نظماً ونثراً وتحفظ الكثير منها .

٥ — معرفة الأحكام السلطانية من إمامة وإمارة وقضاء وحسبة .

٦ — حفظ كتاب الله والتدرب باستعماله .

٧ — معرفة أخبار النبى صلى الله عليه وسلم .

٨ — معرفة العروض لمن يريد أن يكون شاعراً .

وفى هذا الفصل يخالف ابن سنان الخفاجى ويعيب عليه ، لأنه يرى أخذ الأبواب الظاهرة فقط من النحو والصرف ويوجب هو التعمق فيهما وضرب لذلك أمثلة منها « يضرب زيد عمرو » لا يعرف أيهما الضارب دون الإعراب ، « ما أحسن زيدا » لا يعرف أهو استفهام أم تعجب أم غيرهما دون إعراب ، ويرى أن النحوى يصغر « اضطراب »

---

(١) ص ٥ من المثل السائر

(٢) ص ١٠٥ من الجزء الأول من البيان والتبيين

على « ضطيرب » ، ولو تعمق الصرف لعرف أن الصواب « ضتيرب » ، وذكر أن نافعاً قد غلط فى همز « معايش » فى قراءاته وإجماع أصحاب العربية على عدم همزها ، لأنها جمع معيشة التى هى مفعلة وليست فعيلة كسفينة .

أما اللغة فيرى أنه يحتاج فيها إلى معرفة المترادف (خمر ، راح ، مدامة) للقوافى ومعرفة المشترك للجناس وأراه قد تجنى على الخفاجى فى تحامله وسأورد نص كلام الخفاجى ليظهر أن ما ذكره ابن الأثير هو من الأمور الظاهرة التى يرى الخفاجى أن يعرفها الأديب .

يقول ابن سنان[1] : « ما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته :

من اللغة : أن يعرف كل شىء باسمه وما له أسماء يعرف أفضلها [وقد يكون الأفضل أكثر من واحد فهو لا يمنع معرفة المترادفات السهلة دون الوحشية] .

ومن الصرف : ما يتصرف على الأسماء من جمع وتثنية وتذكير وتأنيث وتصغير وترخيم ليورده على جميع ما يتصرف فيه صحيحاً غير فاسد .

ومن النحو : معرفة إعراب ما يقع له فى التأليف حتى لا يذكر لفظة إلا موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب وبناء على حسب ما وردت عنهم .

ويكفى هذا فى النحو والصرف فمعظم مسائلهما تقدير لا نفع فيه للنحوى فضلا عن مؤلف الكلام كأن يبنى من الدال فى قد مثل عصفور .

ومن العروض : يعرف البحور الخمسة عشر وما فيها من زحافات وعلل .

---

(١) ص ٢٧٥ من سر الفصاحة

ومن القوافى : يعرف الحروف والحركات التى يلزم إعادتها وما يصلح ان يكون روياً أو ردفاً مما لا يصلح .

والمشهور من أخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وحروبها وما له قصة مشهورة وحديث مأثور .

ويحتاج الكاتب لجميع ذلك مع معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات .

هذا مع الاطلاع على كتاب الله وشريعته وحديث رسوله . . .

وبالجملة معرفة كل علم وصناعة مما لا يسعه جهله مع ترك التكلف والاسترسال مع الطبع » .

وقد أوردت نص ابن سنان كاملا ليظهر كيف إن ابن الأثير لم يذكره بالخير حين نقل عنه ما أورده فيما سبق من آلات علم البيان بل زاد على ذلك أن عابه فى غير وجه للعيب .

وقد تحدث ابن الأثير عن كل آلة من هذه الآلات الثمانية وفائدتها ومثل لها وذكر استفادته منها فى مكاتباته .

من ذلك عند ماتحدث عن الوقائع التى وردت فى حوادث خاصة ... ماورد[1] عن رسول الله فى بيعة الحديبية ولم يحضرها سيدنا عثمان لحاجة عرضت له فضرب رسول الله بيده الشمال على اليمين وقال « هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه » فأورد ابن الأثير ذلك فى إحدى مكاتباته وعاب[2] على القاضى الفاضل ألا يوردها فى بعض مكاتباته .

ونلاحظ عليه أنه عنيف فى نقده ويعيب مالا عيب فيه فليس بواجب إذا عرف واحد شيئاً أن يعرف الآخر نفس الشىء ويستعمله .

---

(١) ص ١٦ من المثل السائر .

(٢) ص ١٧ من المثل السائر .

ولعل عنفه هذا هو ما كرهه إلى الناس فلم يكن يستقر فى بلد كما سبق فى ترجمته .

كما يلاحظ عليه معارضته القاضى الفاضل فى كل مناسبة وقد لاحظ ذلك ابن خلكان .

ثم هو يذكر من كتاباته الأمثلة الكثيرة المطولة التى تبلغ أحياناً أكثر من عشر صفحات كما سيأتى .

الفصل الثالث[1] فى الحكم على المعانى

وفائدته الإحاطة بأساليب المعانى على اختلافها وتباينها والأصل فى المعانى أن تؤخذ من ظاهر الألفاظ ما دامت لاتحتمل التأويل وهذا هو النوع الأول الذى يفهم منه شىء واحد لايحتمل غيره .

ثم هناك ما يفهم منه الشىء وغيره وهما ضد أو غير ضد ومن الأول منهما قول الشاعر :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً　　لمن بات فى نعمائه يتقلب

فيمكن أن يعود الضمير فى نعمائه على الذى يتقلب فى نعمته هو التى أنعم الله عليه بها ومن يحسده على ذلك فهو أظلم الظالمين .

ويمكن أن يعود الضمير فى نعمائه على الحاسد نفسه الذى يحسد من ينعم عليهم بعطاياه .

ومن النوع الثانى منهما الذى يفهم فيه معنيان ليسا ضدين كافوريات المتنبى ومنها :

«عدوك مذموم بكل لسان . . . . » ، «ولله سر فى علاك . . . . »

(١) ص ٢٠ من المثل السائر .

فكافور جدير حقا بمنزلته ، أو أن المسألة حظ ومصادفات .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى مابيننا سكن الدهر

فسعى الدهر يفهم منه سرعته أو وشاية الناس وسكوته بعد ذلك يفهم منه بطؤه أو سكوت الوشاة ولا تضاد بينهما مع اختلافهما .

الفصل الرابع[1] من المقدمة فى الترجيح بين المعانى

ويكون الترجيح بين حقيقة ومجاز أو بين حقيقتين أو بين مجازين فى معنيين يدل عليهما لفظ واحد .

ففى الترجيح بين الحقيقة والمجاز يرجح المجاز كقوله تعالى « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم » — جلودهم — حقيقة أو مجاز عن الفروج وهو أرجح .

واستدل ابن الأثير على ذلك بطريقته الكلامية المنطقية فى افتراض الاعتراض والرد عليه كما يفعل من يعالج تمرينا هندسيا فيخطىء كل فرض عقلى حتى يبقى فرض واحد يقرّه .

ومثل للترجيح بين حقيقتين بقول النبى صلى الله عليه وسلم « التمسوا الرزق فى خبايا الارض » فالكنوز حقيقة فى خبايا الارض ، والحرث والغرس حقيقة أيضا فيها وهو المرجح لأن الأول مجهول لا يؤمن به .

ومثل للترجيح بين مجازين بقول الشاعر :

قد بلونا أبا سعيد حديثاً وبلونا أبا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا ورعيناه بارضا وجميا

---

(١) ص ٢٦ من المثل السائر .

فالمجاز فى الساحل والقليب عن الكثير والقليل ومجاز آخر أن الساحل لا يحتاج فى ورده إلى سبب والقليب يحتاج إلى دلو وحبل والثانى أدل على البلاغة .

وقد أعجبنى كلامه فى هذا الفصل وفى الفصل السابق فهما يتصلان بفن استخراج المعانى من الألفاظ وهو أحدث وصية للناقد الحديث الذى يهتم بما للألفاظ من ظلال وما تشحن به من معان كثيرة ، وقد أشرت إلى ذلك فى « قضية الأدب » .

الفصل الخامس [١] من المقدمة وهو « جوامع الكلم »
مكرر مع ما سيقوله بعد فى الإيجاز .

الفصل السادس [٢] « الحكمة ضالة المؤمن »
هو إخبار عن أمثال وحكم .

الفصل السابع [٣] فى الحقيقة والمجاز

وتحدث عن ذلك هنا بالإجمال لما سيفصله فيما بعد :

فالحقيقة هى اللفظ الدال على موضوعه الأصلى والمجاز ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، مأخوذ من جاز هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه فهو اسم مكان كالمعاج والمزار ، فحقيقة المجاز الانتقال من مكان إلى مكان فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل كقولنا « زيد أسد » فإن زيداً إنسان والأسد هو هذا الحيوان المعروف

---

(١) ص ٣١ من المثل السائر .
(٢) ص ٣٣ » »
(٣) ص ٣٦ من المثل السائر

وقد جزنا من الإنسانية — إلى الأسدية أى عبرنا من هذه إلى هذه الوصلة بينهما وتلك الوصلة هى الشجاعة . . . .

ويلاحظ عليه مع فضله فى هذا الشرح ملاحظتان :

الأولى : أنه وهو الضليع فى علم الصرف كما هو مفهوم من دعوته إلى التعمق فيه قد اختلط عليه المصدر الميمى باسم المكان فقوله إن المجاز انتقال معناه أن كلمة مجاز مصدر ميمى وليست اسم مكان .

الثانية : قوله « إن زيداً أسد » مجاز ، وهو تشبيه وليس بمجاز لأن كل لفظ على حقيقته فى التشبيه ولم يحصل انتقال فى الألفاظ أو فى المعانى وكل ما هنالك الربط بين الاثنين ولو مثل بمثال للاستعارة كأن يقول رأيت أسداً يضرب بالسيف لسلم كلامه من النقد .

الفصل الثامن[1] من المقدمة فى الفصاحة والبلاغة

ذكر فى هذا الفصل أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهراً بيناً لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع إنما هو اللفظ لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف فما استلذه السمع منها فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لأنه ضدها لمكان قبحه . . . ومثل بمزنة وديمة للحسن وببعاق للقبيح وكلها من المطر ولو كانت الفصاحة فى المعنى لتساوت الكلمات الثلاث فهى تخص اللفظ دون المعنى .

وقد أوشك هنا أن يكون مغالطا لان اللفظ الذى يستلذه السمع هو نفسه الذى يقع موقعه من القلب والفهم ولذلك عاد يجلى مسألة اللفظ والمعنى هذه فقال :

---

(١) ص ٤٠ من المثل السائر

« وليس لقائل أن يقول لا لفظ إلا بمعنى فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى — فإنى لم أفصل بينهما وإنما خصصت اللفظ بصفة هى له والمعنى يجىء فيه ضمنا وتبعا » .

ويظهر أنه يرى[1] أن الفصاحة فى الألفاظ المفردة وذلك عند ما رد على من قال إن فى القرآن آيات لا تفهم إلا بالتفسير فقال هو إن مفرداتها فصيحة وعدم الفهم جاء فى تركيبها فاحتاجت إلى التفسير .

ويخالف بذلك عبد القاهر إذ تحدث[2] عن فساد الذوق بالكلام ممن قالوا إن الفصاحة للفظ بدليل أن لفظة تكون فصيحة فى موضع غير فصيحة فى غيره كلفظ « تؤذى » القبيح فى قول الشاعر .

تلذله المروءة وهى تؤذى

والحسن فى موضعه من الآية « ... إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم . . . . » وقد قال عبد القاهر أيضاً[3] « إن فصاحة اللفظ بحسب معناه لا لحروفه » .

والحق هنا مع عبد القاهر وسيذكر ابن الأثير نفس هذا المثال الذى أورده عبد القاهر فيما بعد .

وقد وردت عليه الشبهة ممن لم يفهم بعض آيات القرآن فأراد أن يدفع مظنة عدم فصاحتها فأثبتها للمفردات ولكنه وقع فى جعله الآيات غامضة تحتاج إلى التفسير .

وإنما العيب فى عقول الذين لم يفهموا ، لا فى ألفاظ القرآن ولا فى تراكيبه ، فالزمن قد تقدم وبعد عن عهد أولئك العرب الذين نزل عليهم القرآن وكانوا يفهمونه لأنه نزل بلغتهم التى هى ملكة مستقرة

---

(١) ص ٤٢ من المثل السائر .

(٢) ص ٣٠١ من الدلائل .

(٣) ص ٣١٢ من الدلائل .

فى طباعهم ويمارسون الحديث بها ممارسة أما المتأخرون المعاصرون لابن الأثير الذين لم يفهموا بعض آيات القرآن فهم يتعلمون اللغة من طريق مدارستها وتعرف القوانين التى تضبطها — مثلنا الآن — فمن الطبيعى ألا يفهموا بعض التراكيب.

فلا يصح أن يكون ذلك سبباً ليغير ابن الأثير حقائق الأشياء فيصف الألفاظ المفردة بالفصاحة وهى لا قيمة لها إلا مركبة فى عبارات . . .

وما سبق هو مذهبه فى الفصاحة ويراها أعم من البلاغة التى قال عنها « بلغت المكان إذا انتهيت إليه وسمى الكلام بليغاً لذلك أى قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية فالبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى » .

ونلاحظ هنا ميزته فى ربط معنى اللفظ الاصطلاحى بمعناه اللغوى كما سبق فى كلمة « المجاز » .

الفصل التاسع[1] من المقدمة فى أركان الكتابة

يقول إن شرائط الكتابة كثيرة أما أركانها فخمسة هى :

١ — جودة المطلع ويشترك فيه الشاعر والكاتب .

٢ — اشتقاق الدعاء من المعنى الذى بنى عليه الكتاب .

٣ — خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة (ويسمى حسن التخلص فى الشعر) ويشترك فيه الشاعر والكاتب .

٤ — أن تكون الألفاظ فيه غير مخلوقة بكثرة الاستعمال .

وهو لا يريد أن تكون غريبة بل يريد حسن السبك حتى يظن السامع أن الألفاظ التى يسمعها غير ما فى أيدى الناس .

ويشترك فى ذلك الشاعر والكاتب (ويسمى هذا السهل الممتنع)

---

(١) ص ٤٤ منه .

٥ — ألا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن والحديث ، وحل المعانى أحسن من تضمين نص اللفظ .

الفصل العاشر [١] من المقدمة فى الطريق إلى تعلّم الكتابة

ذكر لذلك ثلاث طرق :

١ — أن يحذو المتعلم حذو المتقدمين من الكتاب فى استعمال الألفاظ والمعانى وهو أدنى الطبقات .

٢ — أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة صفة فى تحسين ألفاظ أو تحسين معان وذلك متوسط .

٣ — ألا يطلع على كتابة المتقدمين بل يصرف همه إلى حفظ القرآن والأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن تغلب على شعره الإجادة فى الالفاظ والمعانى ثم يقتبس منها جميعاً فيخطىء أو يصيب حتى يستقيم على طريقة لنفسه وتلك هى طريقة الاجتهاد فى الكتابة التى تشبه الاجتهاد فى الشريعة .

ثم يتحدث [٢] فى هذا الفصل عن ثلاث طرق لحل الشعر :

بلفظه ، أو ببعض لفظه ، أو بلفظ من عنده .

ويعرض [٣] نماذج من كتابته التى حل فيها أبياتا من الشعر فى أغراض مختلفة ويذكر فى حل آيات القرآن أنه ينبغى المحافظة على ألفاظها لا بجملتها وكذلك الأخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معناها ولكن بلفظ الكاتب .

ثم تحدث [٤] عما ذكره لنا الاستاذ محمد خلف الله [٥] عنه من أن

(١) ص ٤٦ منه

(٢) ص ٤٨ إلى ٥٠ من المثل السائر

(٣) ص ٥٠ إلى ٦٨ من المثل السائر

(٤) ص ٦٩ من المثل السائر

(٥) فى محاضرته بنادى دار العلوم فى ٢٤/٥/٥١ عن أثر الدراسات القرآنية فى تطور النقد العربى .

حل معانى القرآن يحتاج إلى الدرس ومداومة النظر وأنه كان يأخذ السور
ويتلوها وكلما مر به معنى أثبته فى ورقة منفصلة على نظام الفيشات .

ثم يأخذ فى حل تلك المعانى واحداً بعد واحد ولا يقنع بذلك بل
يعاود تلاوة السورة مرة ثانية ويفعل ما فعله أولا ثم مرة أخرى . . .
وفى كل مرة يظهر له من المعانى ما لم يظهر فيما سبق .

وقد ملأ صفحات [1] فى هذا الفصل بأمثلة من كتابته التى استخدم
بها المعانى من سورة يوسف وحدها فى كتب كثيرة ثم من سور متفرقة :
الأعراف . الرعد . الذاريات . الصافات . المائدة . الجن . آل عمران .
النحل . المؤمنون . مثل قوله ص ٧٦ : (ومن ذلك) ما ذكرته فى ذم غلام
أبله كنت أقاسى من بلهه نكداً فكتبت يوماً من الأيام إلى بعض
إخوانى كتابا وعرضت فيه بذكره فقلت « ولقد ملكه النسيان حتى كأنه
يقظ فى صورة نائم وحتى حقق قول التناسخ فى نقل أرواح الأناسى
إلى البهائم فما أرسل فى حاجة إلا ذهبت عن قلبه يمنة ويسرة ولا طلب
منه ما استحفظه إلا قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة » وهذا فصل يشتمل
على عدة معان منها ما هو مأخوذ من سورة الكهف .

وملأ صفحات [2] أخرى بأمثلة من كتابته فى حل معانى الحديث .

وهذا مثال له منها [3] قال « ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الفصاحة :
الفصاحة أفكار الخواطر لا تستولد على انفرادها ، وغايتها أن يتناكح فى
استنتاج أولادها وأنا أنكح فكرى بفكرى نكاح الأنساب ولا أخاف
أن أضوى فأميل إلى الاغتراب — مأخوذ من قول النبى : غربوا

(١) من ص ٦٩ إلى ص ٧٧ من المثل السائر
(٢) من ص ٧٧ إلى ص ٨٦ من المثل السائر
(٣) ص ٨٢ من المثل السائر

لا تضووا ، يريد بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأة القريبة حصل بينهما حياء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغى فيجىء الولد ضاويا هزيلا .

ولا قيمة لرسالته من ناحية الفصاحة فلا فصاحة فيها فضلا عن تناقضه مع مذهبه السابق الذى جعل الفصاحة فى اللفظ ، وهو يقول هنا إنها « أفكار » .

ولا أقصد أن نزول كلامه عن مستوى البيان الرائع راجع إلى ما فى ألفاظ النكاح من ظلال غير مستحبة الآن فى الأدب الرفيع لما حمله إياها الاستعمال العامى من معنى سوقى لعله لم يكن فى عصره .

إنما أقصد أن الحديث الذى يحفظه هو الذى دعاه إلى أن يزوج أفكاره بعضها ببعض لتخرج نتاجاً قوياً على الرغم من أن المتزوجين ليسا أجنبيين . . .

فكان كالشاعر الذى يبنى البيت على القافية . . .

على أن المعنى نفسه غير غريب فى الاستعمال فكلمات « بنات الأفكار » و « عذارى الفكر » شائعة مستحبة ولكن طريقته هو لم تكن مستحبة وعبقرية الأدب والفن فى طريقة الأداء .

هذا فضلا عن فهمه لحديث النبى وأن الاغتراب فى الزواج لاتقاء الحياء فقط بين الزوجين ، وإنما ذلك خاضع لقوانين الوراثة وله العذر فى عدم إدراكها فهى قوانين حديثة .

المقالة الأولى[1] فى الصناعة اللفظية

القسم الأول منها فى اللفظة المفردة

يرى أن صاحب هذه الصناعة يحتاج فى تأليفه إلى ثلاثة أشياء :

١ — اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلىء المبددة فإنها تتخير وتنتقى قبل أن تنظم .

٢ — نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجىء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها .

٣ — الغرض المقصود من ذلك على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذى يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة فى العنق وتارة يجعل شنفاً فى الأذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

ثم ذكر أن تركيب الكلام قد يقتضى لفظة دون لفظة مع أن كلتيهما فصيحة كلفظة « الفؤاد » ولفظة « قلب » فى القرآن كل منهما لا تحل محل الأخرى لمنزلتها فى تركيبها : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وذكر ميزة أخرى للتركيب حين قال إن ألفاظ العرب مفردة يعرفها العرب من قبل ومن بعد ومع ذلك فالقرآن يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه لفضيلة التركيب ومثل بلفظ « تؤذى » ويراها ضعيفة فى قول الشاعر — تلذ له المروءة وهى تؤذى — ولكنها قوية فى موضعها من قوله تعالى « إن ذلكم كان يؤذى النبى » .

---

(١) ص ٨٦ من المثل السائر

وقد ذكر عبد القاهر هذا المثال فيما سبق ليفيد أن اللفظ فى نفسه لا يوصف بالفصاحة .

وعلى طريقة ابن الأثير فى خطابه للقاضى الفاضل نقول له إنه كان الواجب عليه أن يتنبه إلى تلك الخاصية فى اللفظة التى يراها ضعيفة فى تركيب قوية فى تركيب آخر فيدله ذلك على أن اللفظة المفردة لا فصاحة فيها ولا معنى لها إلا مركبة مع غيرها .

ثم يقول[1] بعد ذلك « إن من الألفاظ حسن وقبيح ولا قيمة لرأى من يسوّى بين جميع الألفاظ فى الحسن بدعوى أن العرب كانت تنطق كل الألفاظ فكلها حسن » .

ويسألهم ألا يوجد فرق بين الأسد والفدوكس أو بين السيف والخنشليل . . ثم يقول :

« أما العرب فلا شك أنهم كانوا يستحسنون اللفظ فقط كما نستحسن ولكنهم كانوا يستعملون غير الحسن أيضا كما نستعمل وليس معنى ذلك استحسانه . . على أن عصرنا يختلف عن عصرهم وليس من الضرورى أن نستحسن ما استحسنوه ولو كان قبيحاً وإنما نحن نأخذ منهم صحة اللغة والنحو فقط فى رواية شواهدهم على ما فيها من حسن وقبح » .

وهذا رأى سديد لابن الأثير ولكن الشق الأخير من كلامه « أن هناك ما استحسنه العرب ولا نستحسنه » لا يتفق مع قوله[2] « إن الحسن ليس نسبياً بالإضافة إلى زيد وعمرو وإنما هو ذووى ... فلفظ مزنة حسن عند كل الناس والبعاق قبيح عندهم جميعاً » .

أقول إن هذا الشق من كلامه وكذلك الواقع والقسمة العقلية كل ذلك يقتضى أن تكون هناك ألفاظ حسنة عند بعض الناس قبيحة عند

---

(١) ص ٩٠ من المثل السائر .
(٢) ص ٩٢ من المثل السائر .

بعضهم الآخر — والقسمان الآخران أو الطرفان هما : ألفاظ قبيحة عند جميع الناس ، وألفاظ حسنة عند جميع الناس .

ثم عاب[١] على الخفاجى فصله فى الأصوات والحروف ومخارجها ويرى أن لا حاجة إليه . . . مع أن الخفاجى سبق عصره فى الاهتمام بالأصوات .

ولها فى عصرنا الحاضر فروع مستقلة من علوم اللسان ومن خير ما ألف فيها مما استعان بالخفاجى وبعلم القراءات مع البحوث الأوربية الحديثة كتاب الأصوات اللغوية للدكتور أنيس .

ويرى ابن الأثير الاكتفاء بتحكيم السمع وقد اخطا فى ذلك كما أخطأ فى أن الحسن ذووى مطلقاً وسأدلل عل خطئه .

فقد رد على خلاصة نظرية الخفاجى فى أن القبح يأتى لتقارب مخارج الحروف ممثلا لذلك بلفظ مَلَعَ[٢] بمعنى عدا فهو قبيح جداً مع بعد مخارج حروفه أما بَلَغَ وعكسها غَلَبَ وحَلَمَ ومَلُحَ وعكس مَلَعَ وهو عَلِمَ فكل ذلك حسن .

ورأيى أن قبح هذه الكلمة قبل كل شىء لغرابتها وعدم إلفها ولأنها مؤلفة كلها من حروف مجهورة غير مهموسة[٣] تهتز لها الأوتار الصوتية جميعاً وهى كلها حروف ساكنة[٤] ليس بينها حرف لين مع بدئها بحرف من حروف الفم الأنفية وهو الميم يقل ما يسمع له من حفيف عند النطق[٥] فضلا عن تحركها جميعاً بالفتح وليس كذلك عكسها

---

(١) ص ٩٢ من المثل السائر

(٢) الضبط من القاموس مادة « الملع »

(٣) الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ٢٢ سطر ١٤

(٤) الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ٢٢ سطر ١٤

(٥) ص ٤٨ سطر ٨ من المصدر السابق

عَلَمَ فلم تبدأ بالميم ولم تتوال فيها الفتحات وهى ليست غريبة الاستعمال .

ثم إن ابن الأثير يطبق رأى الخفاجى دون أن يشعر حين يستقبح لفظ مستشزرات لثقلها على السمع ولم يأت ثقلها إلا من قرب مخارجها ومشقة اللسان فى الانتقال بين هذه المخارج المتجاورة وشعور السامع بالمشقة التى يعانيها المتكلم حين النطق بها .

ثم قسم الألفاظ إلى ثلاثة أقسام :

١ — ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشى .

وحبذا أن يقوم منا فى عصرنا الحاضر من يؤلف قاموساً لغوياً من الألفاظ التى أشار إليها ابن الأثير هنا فتحصر الألفاظ السمحة المتداولة الآن والتى استعملها العرب فى جميع العصور بدلا من انتظار قاموس المجمع اللغوى الذى ينوى أن يضم كل ما قاله الأوائل والأواخر وأخشى ما نخشاه أن يظل منتظراً حتى يأتى آخر الأواخر لتدوين ألفاظه أيضاً وحينئذ لا نتتفع به فى هذه الدنيا فهل ينفع فى الدار الآخرة !!؟

٢ — النوع الثانى : ما تداول استعماله الأول دون الآخر ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله .

ويلاحظ أن هذا ينقض نظريته فى الحسن الذوى ويعدلها إلى الحسن النسبى .

ثم يقول عن هذا النوع إنه هو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ، لأنه لم يكن عندهم وحشياً وهو عندنا وحشى وقد تضمن القرآن والحديث منه كلمات معدودة هى التى يطلق عليها « غريب القرآن » و « غريب الحديث » .

قال تعالى « تلك إذن قسمة ضيزى » فضيزى كلمة غريبة ولكنها فى موضعها من فاصلة السورة لا تغنى عنها كلمة جائرة ولا ظالمة . . .

... فالسورة كلها مبنية على الألف المقصورة وهذه الكلمة الغريبة هى التى تناسب تلك القسمة الجائرة الغريبة » .

٣ — والنوع الثالث هو الوحشى الغليظ ويسمى المتوعر وليس وراءه فى القبح شىء وهو ما يجمع بين الغرابة والثقل على السمع — أما النوع السابق فلا ثقل فيه على السمع — ومن هذا الوحشى لفظ جحيش بدلا من فريد[1] واطلخم[2] وجفخت فى قول المتنبى .

« جفخت وهم لا يجفخون بها بهم » بدلا من افتخرت ثم يرد[3] على قوم يرون الكلام الفصيح هو الذى يعز فهمه ويبعد متناوله ... فيقول لهم إن الفصاحة هى الظهور والبيان لا الغموض والخفاء وإن الألفاظ فى الاستعمال قسمان جزلة ورقيقة ولكل موضع فى الاستعمال .

والجزل هو المتين على عذوبته فى الفم لا أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة .

والرقيق هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس لا أن يكون ركيكا سفسفا .

ومثل للجزل بقوله تعالى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

ومثل للرقيق بقوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى[4] » .

وقبل أن ينتهى من هذا القسم الأول عن اللفظة المفردة أشار إلى ما تتحدث به أحدث نظرية فى الأدب الآن من أن الكلمات قد تشحن

---

(١) فى قول تأبط شرا .

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعروري ظهور المسالك

(٢) فى قول أبى تمام : قد قلت لما اطلخم الأمر ...

(٣) ص ١٠٠ من المثل السائر .

(٤) واستمر فى التمثيل من ص ١٠٠ إلى ١٠٦ .

فى مختلف العصور بمعان حسنة أو قبيحة فقد ذكر[1] أن من أوصاف الكلمة ألا تكون مبتذلة بين العامة .

١ — بأن يكون العامة أضافوا معنى ممجوجا إلى معناها مثل لفظة « الصرم » فى اللغة القطع فانحرفت عند العامة إلى المحل المخصوص عند الحيوان بعد تغيير شكل الصاد وقلبها سينا .

٢ — أو أن يكون العامة أخرجوها عن معناها مثل « الظرف » أصله وصف للمنطق فأخرجه أبو نواس فى شعره — متبعا العامة — وصفا للوجه وأخرجه أبو تمام وصفا للخلق . . .

وأنا لا أوافقه على هذا المثال فهناك مجاز بين المعنيين لا يقبح به المعنى الثانى .

٣ — أو بألا يخرجوها عن معناها ولكنهم ابتذلوه من كثرة الاستعمال على أن من هذا مالا يمتهن كالأرض والسماء والماء والحجر والطين أما قول المتنبى فى شعره « كأنها الخازباز » فهو من مضحكات الأشعار .

وما جاء الاضحاك فى رأيى إلا مما توحى إليه الكلمة من معانى الهزء والسخرية ثم قال « ومن أوصاف الكلمة ألا تكون مشتركة بين معنيين إلا لقرينة كقوله تعالى « وعزروه ونصروه . . . » فالتعزيز مشترك بين العقوبة والنصرة والقرينة « نصروه » تعين المعنى الثانى .

أما قول الشاعر :

أعطيت لى دية القتيل وليس لى   عقل ولا حق عليك قديم

فالمعنى المتبادر هو نفى العقل المفكر لا العقل بمعنى الدية الذى يريده الشاعر : ومن أوصاف الكلمة تجنب الحروف التى يصعب النطق بها مثل

---

(١) ص ١٠٧ من المثل السائر .

مشتشزرات وفى هذا كما قلت اعتراف بفضل الخفاجى فضعوبة هذه الكلمة لتقارب مخارج حروفها .

القسم الثانى[١] من المقالة الأولى : فى الألفاظ المركبة

وهى تلك التى يحدث لها تأليفها صورة مركبة تختلف فى رأى الناظر عن صورتها وهى مفردة كما يحصل للدرر حين تنظم فتجمل فى رأى العين وحين يفسد تأليفها فيضع ذلك من قيمتها .

وصناعة التأليف ثمانية أنواع .

السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم مالا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرير الحروف[٢]

وكلها فى النظم والنثر إلا السجع والموازنة ففى النثر فقط وإلا التصريع فهو فى الشعر يقابل السجع فى النثر .

ولكنه بعد أن رسم انفسه هذا المنهج خالفه فى سيره فقد أغفل التصريع كقسم وتحدث عنه فى ثنايا السجع وزاد المعاظلة اللفظية وهى النوع السابع الذى ذكره فيما بعد ولم يذكرها عند رسم المنهج كما ذكر تكرير الحروف كقسم من ثمانية وأشار إليه فقط عند كلامه على المعاظلة اللفظية ثم ذكر بدلا منه النوع الثامن الذى جاء فيما بعد بعنوان المنافرة بين الألفاظ ؟

النوع الأول[٣] وهو السجع

ويحتاج إلى أربعة شرائط :

١ — اختيار الألفاظ المفردة كما سبق .

---

(١) ص ١١٤ من المثل السائر .
(٢) ص » » » » .
(٣) ص » » » » .

٢ — اختيار التركيب الملائم لها .

٣ — أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى .

٤ — وهذه الرابعة من ابتكار ابن الأثير وهى أن تكون كل واحدة من الجملتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، وهو يرى أن معظم البلغاء من الحريرى إلى ابن العميد فقراتهم متحدة المعانى فلا قيمة فى نظره لسجعهم .

وإذا وافقناه على رأيه فى الحريرى فى كل ما قاله لا نوافقه على ذلك فى ابن العميد فى بعض كلامه على الأقل .

ثم جاء بأمثلة لهذا النوع المبتكر من كلامه[1] ، ومنه ما كتبه ص ١١٩ فى جواب يتضمن هرب غلام « وأما الإشارة الكريمة فى أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يفر المهر من عليقه ويطير الفراش إلى حريقه . وغير بعيد أن ينبو به مضجعه أو يكبو به مطمعه ، فيرجع وقد حمد من رجوعه ما ذمه من ذهابه وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة فى إيابه فما كل شجرة تحلو لذائقها ولا كل دار ترحب بطارقها . . » ثم قال « فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها وأعطها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها وكذلك فليكن السجع وإلا فلا !! »
وذكر لأبى إسحق الصابى[2] أمثلة كل فقرتين منها متشابهة المعنى .

ثم أورد تقليدين[3] للصابى بنقابة العلويين ليوازن بهما تقليدين[4] أنشأهما معارضة للصابى وفضل نفسه عليه كما هى عادته .

ثم يرى عقل الصابى زائداً على فصاحته وبلاغته وأن عبارته لم تسلم من الضعف والركة .

---

(١) ص ١١٨ — ١٢٠ من المثل السائر .
(٢) ص ١٢٠ — ١٢١ من المثل السائر .
(٣) ص ١٢٢ — ١٤١ من المثل السائر .
(٤) ص ١٤١ — ١٤٨ من المثل السائر .

وهكذا يرجع إلى عادته فى عنف النقد مما كان سبباً لكره الناس إياه كما سلف فى ترجمته ولا يبرر هذا العنف أنه أقر للصابى بالتقدم .

ثم إن حكمه يكون سليما لو وازن بين شخصين ليس هو واحداً منهما أما أن يكون خصما وحكما فلا نقره على ذلك ولو كان الحق فى جانبه فإن مجرد اتخاذه هذا الموقف موقف الخصم والحكم ينحرف به عن الحق .

ثم تحدث بعد ذلك عن أقسام السجع :

١ — فالفصلان متساويان .

٢ — أو الأول أقصر .

٣ — أو الثانى أقصر وهو قبيح .

وجاء بأمثلة من القرآن ، ثم تحدث عن السجع القصير والطويل وأن القصير يأتى لفظين لفظين أو ثلاثة ثلاثة إلى عشرة ، والطويل من أحد عشر إلى العشرين . . ومثل من القرآن ثم تحدث عن التصريع فى الشعر فى معرض الكلام عن السجع وجعله مراتب سبعا .

النوع الثانى[1] وهو التجنيس

يجرى الكلام فيه كما مضى فى السجع تعريفاً وتقسيما واستشهاداً من الشعر والحديث والقرآن وقد ذكر أن القرآن ليس فيه تجنيس كامل إلا آية واحدة هى « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » وأورد حديثاً للنبى « خلوا بين جرير والجرير[2] » وقد ذكر من أقسام التجنيس القسم الكامل فى الحروف والحركات وستة أقسام أخرى . . ولم ينس التمثيل من كلامه كقوله فى وصف كريم « وقد جعل الله حرمه ملقى الجفان وملتقى الأجفان فهو حمى لمن جنى عليه زمانه وجار لمن بعد عنه جيرانه » .

---

(١) ص ١٥٣ من المثل السائر

(٢) الجرير : الحبل

النوع الثالث[1] وهو الترصيع

ومعناه الأصلى تماثل جانبى العقد ويكون فى البيت بتماثل شطريه وفى المسجوع بتماثل فاصلتيه ومثل من النثر ومن الشعر ومن كلامه فمن النثر قول الحريرى « فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » ومن كلام أم ابن الأثير « من قوّم أود أولاده ضرم كمد حساده » ومن الشعر قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـــدى الطريقة نفاع وضرار

النوع الرابع[2] لزوم ما لا يلزم

ولم يجد فيه أمثلة من القرآن إلا قليلا مثل « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق » ومثل لأبى العلاء المعرى ولنفسه ومثل قليلا للعرب ، ويرى المعرى متكلفا فيه .

النوع الخامس[3] الموازنة

وهى كالسجع إلا أن اللفظتين متفقتان وزنا فقط لا متحدتين حرفا مثل « . . . الكتاب المستبين . . . و . . . الصراط المستقيم » .

النوع السادس[4] اختلاف صيغ الألفاظ

وينقله من جفاف علم الصرف فيضفى عليه لونا فيه شىء من الرونق ويمثل له بلفظ « خود » للفتاة وهو رقيق جميل ، ولكن الفعل « خود »

---

(١) ص ١٦١ من المثل السائر

(٢) ص ١٦٣ من المثل السائر

(٣) ص ١٦٩ من المثل السائر

(٤) ص ١٧٠ من المثل السائر

قبيح ، كذلك الماضى « ودع » غير مستعمل والمضارع والأمر « يدع » و « دع » مستعملان ، استعمال لفظة « اخدع » مفردة جميل :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

واستعمالها مثناة قبيح .

يا دهر قدم من أخدعيك فقد أضججت هذا الانام من خرقك

ورأيي أن القبح هنا من قبل التثنية فى الاستعارة القبيحة والجمال قبل إفراد اللفظ فى الصورة الجميلة صورة المحب المدنف المفارق لديار أحبابه وهو مع ذلك منصت لأصواتهم مائل بعنقه نحوهم حتى آلمته عروق رقبته .

ثم يذكر أن اللب بمعنى العقل لا تستعمل فى القرآن إلا مجموعة « أولو الألباب » وكذا « أكواب » تذكر فى القرآن دون المفرد « كوب » .

النوع السابع (١) المعاظلة اللفظية

وهى التى نسيها عند مارسم منهج الكلام كما أشرت — وهى غير المعاظلة المعنوية التى يتكلم عنها فى التقديم والتأخير — ويرى المعاظلة اللفظية معيبة وتكون :

١ — فى أدوات الكلام بتوالى الصلات مثل « سبوح له منها عليها شواهد » .

٢ — وفى تكرير الحروف مثل « ... وليس قرب قبر حرب قبر » .

٣ — وتتابع الأفعال مثل « وبها نذرت أعود أقتل روحى » .

ومثل قول المتنبى « أقل أنل أقطع احمل علّ سلّ أعد . . .

وفى القرآن تتوالى الأفعال ، لكن يفصل بينها بالواو فلا تخرج عن حد الفصاحة ، « وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » .

---

(١) ص ١٧٧ من المثل السائر

٤ — ومن المعاظلة كثرة الإضافات مثل « سرج فرس غلام زيد » وكقول الشاعر « حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى . . . . . » .

ومن المعاظلة ورود صفات متعددة على نحو واحد كقول المتنبي :

ندٍ أبيّ غرٍ واف أخى ثقة   جعد سرىّ نهٍ ندب رضى ندس

النوع الثامن [1] المنافرة بين الألفاظ فى السبك

وقد نسيه عند رسمه منهج الكلام [2] وذكر بدلا منه هناك تكرير الحروف الذى عده نوعا من المعاظلة اللفظية كما سبق ، وقال عن المنافرة إنها ذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولى بالذكر مثل قول المتنبي :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل   ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم

وكان يمكن أن يقول « . . . الذى هو ناقض ولا ينقض الأمر . . . »

وفى هذا الموضع من الكتاب يتحامل على أبى العلاء ويعنف فى الحملة عليه ويصفه بأنه أعمى البصر والبصيرة لا لشىء إلا لأن أبا العلاء يعجب بالمتنبي وكان يقول ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ماهو فى معناها وقد أوجد له ابن الأثير تلك اللفظة فى هذا البيت .

ثم ذكر أن من المنافرة الفصل بين الصفة والموصوف بضمير المتقدم، مثل : حلفت لها بالله يوم التفرق   وبالوجد من قلبى بها المتعلق

وذكر من ذلك أن تزاد الألف واللام فى اسم الفاعل وقيام الضمير فيه مقام المفعول مثل « فلو عاينتهم والزائريهم . . . . »

والحق فى نظرى أن هذا الباب وأمثاله مما يكفى فيه نظر عالم النحو فالقبح فى الأمثلة ويجب أن يسمى الفساد المقابل للصحة جاء لأن التركيب النحوى صاحب الدلالة الأولى لم يستكمل صحته فلا داعى لأن ينظر فيه علم البيان صاحب الدلالة الثانية .

(١) ص ١٨٣ من المثل السائر .   (٢) ص ١١٤ من المثل السائر

المقالة الثانية[1] فى الصناعة المعنوية

ويتحدث فيها عن المعانى على وجه الإجمال فيذكر .

أولا : معانى جميلة مبتكرة على غير مثال ، للشعراء والكتاب ولنفسه ومعظم معانيه التى ذكرها لنفسه غير مبتكرة كما لاحظ ابن خلكان وإنما هى مقتبسة من القرآن والحديث والشعر على الطريقة التى ذكرها من قبل فى استخراج المعانى بحل النصوص .

وقد ملأ ثمان عشرة صفحة[2] بأمثلة له وحده — وكان يذكر الكتاب ثم يذكر ما فيه من المعانى كقوله فى وصف نساء حسان :

« أقبلت ربائب الكناس فى مخضر اللباس فقيل إنما يخترن الخضرة من الألوان ليصح تشبيههن بالأغصان » ثم يقول : « وهذا معنى غريب وربما يكون قد سبقت إليه إلا أنه لم يبلغنى بل ابتدعته ابتداعا !! » .

ثانيا : معانى محتذاة على مثال وبعد أن ذكرها أخذ يرد على من ادعى أن العرب أرباب الفصاحة كانت تعنى بالألفاظ فقط دون المعانى فيقول[3] .

« اعلم أن العرب كما كانت تعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدراً فى نفوسها » .

وتحدث عن العناية بالسجع فقال « إنها لم تكن للفظ وحده بل خدمة للمعنى . . . »

ورد على من مثل بهذه الأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

---

(١) ص ١٨٦ من المثل السائر .

(٢) من ص ١٩١ إلى ص ٢٠٨ من المثل السائر .

(٣) ص ٢١١ من المثل السائر .

وشدت على حدب المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

على أنها ألفاظ لا معنى لها وعرضها عرضاً يدل على تذوق جميل فى أسلوب لا بأس به وقد ذكرت رأيه فى كتابى « قضية الأدب » مقارناً بآراء عبد القاهر وابن قتيبة وأبى هلال والباقلانى والعقاد عن هذه الأبيات .

ثم أخذ يتحدث عن الصناعة المعنوية بالتفصيل فذكر أنواعها الثلاثين :

النوع الأول (١) الاستعارة

ذكر مقدمة لها قال فيها : إن للفصاحة والبلاغة أوصافاً عامة وأوصافا خاصة فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى والعامة كالسجع فيما يرجع إلى اللفظ والاستعارة فيما يرجع إلى المعنى .

وهذه تشبه نوعا ما النواحى الأربع التى تذكرها أحدث نظرية فى الأدب إذ تتحدث عن ناحيتين فى الجمل وناحيتين فى كل لفظ على حدة .

فى الجملة المعنى الذى تدل عليه ويقابله عند ابن الأثير الاستعارة وفيها الموسيقى التى تنتظم الألفاظ مكتملة ويقابلها عند ابن الأثير السجع وإن كانت الموسيقى أعم من السجع كما أن المعنى أعم من الاستعارة وفى كل كلمة على حدة معنى . . . ويقابل ذلك عند ابن الأثير المطابقة وفى الكلمة صفة صوتية لمقطع الكلمة . . . ويقابلها عند ابن الأثير التجنيس .

ثم قال بعد ذلك إن الكلام حقيقة ومجاز ، والمجاز توسع فى الكلام ،

---

(١) ص ٢١٤ من المثل السائر .

وتشبيه ، والتشبيه تام أو محذوف الأداة وذلك الأخير هو الاستعارة ، [في نظره] وفرّق بين التشبيه والاستعارة بوجوب تقدير الأداة وحسن إظهارها في التشبيه وإمكان إظهار الأداة وقبح إظهارها في الاستعارة مع وجوب طي المستعار له ويرى في مثل « بحّ صوت المال » توسعاً في الكلام لا استعارة وقبحه هنا لاستعماله على وجه الإضافة ، والتوسع في الكلام هو العدول عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة [أما الاستعارة ففيها مشاركة] .

واستعمال التوسع على غير الإضافة حسن وقد ورد في القرآن الكريم « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنهما جماد والنطق للإنسان ولا مشاركة بين المنقول والمنقول اليه ومنه قول النبي عن أحد « هذا جبل يحبنا ونحبه » ومن التوسع مخاطبة الأطلال .

ثم ذكر أقسام الغزالي الأربعة عشرة للمجاز وأظهر فسادها وتتبع كل قسم وأرجعه إلى أحد أقسامه الثلاثة : التوسع والتشبيه والاستعارة ، أو أخرجه إلى الحقيقة أو قال إنه يتبع الوضع اللغوي كقول الغزالي بزيادة الحرف في « فبما رحمة من الله لنت لهم » ورد عليه رداً عنيفاً مؤاخذا إياه أن يذكر شيئاً زائداً في القرآن .

وأعتقد أن الغزالي ما ذكر زيادة الحرف إلا تمشياً مع صناعة النحو لأنه لا عمل له في قوانين النحو وليس معنى ذلك أنه ينكر ما هو مقرر عند البلاغيين عن إفادة حروف الزيادة توكيداً في الكلام ولكن الظاهر أن ابن الأثير يكره الفلاسفة والمتكلمين مع أن قدرته على محاجتهم والرد عليهم تدل على تضلعه في طرقهم إن لم يكن في مادتهم .

ثم أخذ يمثل للاستعارة من القرآن والأخبار النبوية ويروي لبعض

العرب وللحجاج ولشعرائه الثلاثة الذين يفضلهم وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى ورد على الآمدى والخفاجى وأبى هلال بعض أخطائهم فى خلط الاستعارة بالتشبيه وفى تقبيحهم بعض الاستعارات مستعينا بالبراهين الهندسية .

فإذ يقول الخفاجى إن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تقل قيمتها ـ وهو محق فى قوله ـ يقول ابن الأثير متخذاً أسلوب الرياضى البارع

« إذا كان الخط ا ب يساوى الخط ب ح
وكان الخط ب ح « الخط حـ ء
إذن فالخط ا ب « الخط حـ ء

فإذا كانت استعارة مناسبة مبنية على استعارة أخرى مناسبة فالجميع متناسب » .

وهذا خطأ من ابن الأثير لا شك لأنه يخلط مناهج العلوم ومقاييسها بمقاييس الفنون — فهو فى هذا الخلط معيب كأولئك الذين عاب عليهم خلط التشبيه بالاستعارة .

وذلك أن المحسنات البديعية ومثلها الاستعارات والتشبيهات تكون جميلة إذا جاءت مفردة فى الكلام أو مفرقة ولكنها إذا تراكمت سمج الكلام ولو كان جميلا فوق جميل فالمرأة التى تتزين بعقود بعضها فوق بعض إن لم يوح ذلك بشىء من السماجة فالأعلى على الأقل يحجب الأسفل .

ولو أردنا البراهين العقلية فالاستعارة الواحدة بعد عن المعنى الأصلى فبناء استعارة أخرى عليها زيادة فى البعد عن المعنى الأصلى والمسألة على كل حال لا تنفع فيها البراهين العقلية فالكلام بتراكمه تتغير صفاته .

النوع الثانى [1] التشبيه

نعى على علماء البيان تفريقهم بين التشبيه والتمثيل لأنهما فى نظره شىء واحد لافرق بينهما فى أصل الوضع إذ يقال شبهت هذا الشىء

---

(١) ص ٢٣٢ من المثل السائر

بهذا الشيء كما يقال مثلته به وقسم التشبيه قسمين مظهراً ومضمراً ورأى المضمر أبلغ من المظهر وأوجز ، وقسم المضمر أى الذى لا تظهر فيه الأداة أقساما خمسة[1] .

ثم ألغى القسم الخامس الذى رأى كثيراً من علماء البيان يخلطون فيه التشبيه بالاستعارة ورآه هو استعارة ، وقد أخطأ فى ذلك لأنه تشبيه وليس استعارة والدليل على خطئه المثال الذى أورده وهو قول البحترى :

تعز فإن السيف يمضى وإن وهت حمائله عنه وخـــلاه قائمه

فهو تشبيه ضمنى لوجود طرفى التشبيه فى الكلام وهما المخاطب والسيف وإنما يعتبر استعارة إذا كانت صورة الكلام :

« إن السيف يمضى وإن وهت حمائله عنه وخلاه قائمه »

ثم قسم التشبيه عامة إلى أنواع أربعة :

١ — تشبيه مفرد بمفرد .

٢ — ومركب بمركب .

٣ — ومفرد بمركب .

٤ — ومركب بمفرد .

وجاء بأمثلة من القرآن ومن الشعر ومن كلامه .

النوع الثالث[2] التجريد

ذكر عنه أنه سمع قائلا يقول التجريد فى الكلام حسن ثم سكت فسأله عن حقيقته فقال كذا سمعت ولم يزد شيئاً وذكر أنه فكر فى الأمر واهتدى فيه إلى رأى ثم وصل إليه ما ذكره أبو على الفارسى عن التجريد فوجده موافقا لما اهتدى إليه .

---

(١) ص ٢٣٣

(٢) ص ٢٥٠

وأورد قول الفارسى [1] عن اعتقاد العرب أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسدولئن سألته لتسألن منه البحر وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى « وهل تطيق وداعا أيها الرجل » وهو الرجل لا غيره ،ورأى ابن الأثير القسم الثانى من كلام الفارسى صوابا فى التجريد وخطأ الأول وجعله تشبيها مضمراً وخلص من ذلك إلى تزكية رأيه الذى ذكره أولا فى حد التجريد [2] بأنه إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب ، وقد قسمه إلى تجريد محض وهو الذى يصلح خطابا للغير وتجريد غير محض ، ومثل للأول بقول الحيص بيص .

إلام يراك المجد فى زى شاعر   وقد نحلت شوقا فروع المنابر

واشترط فيه أن يظل الخطاب على حاله فإذا تحول عد ذلك توسعاً لا تجريدا وجعل من ذلك قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة .

حننت إلى ريا ونفسك باعدت   مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً   وتجزع إن داعى الصبابة أسمعا

لأنه ورد بعد ذلك ما يدل على أن المراد بالتجريد فيما سبق التوسع فقط لأنه قال :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى   على كبدى من خشية أن تصدعا

ومثل للقسم الثانى غير المحض الذى لا يصلح خطابا للغير ، بقول عمرو بن الأطنابة :

أقول لها وقد جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

وبقول الآخر :

أقول للنفس تأساء وتعزية   إحدى يدى أصابتنى ولم ترد

(١) ص ٢٥٢   (٢) ص ٢٥١

النوع الرابع[1] الالتفات

ورأى حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله وكذلك يكون هذا النوع من الكلام لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة وقسمه إلى ثلاثة أقسام .

١ — الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة .

٢ — الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر .

٣ — الإخبار عن الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى .

النوع الخامس[2] توكيد الضميرين

وهو من النحو ، ورده على من ينبه إلى ذلك لا معنى له إلا أن النحو يجب ألا يفهم على أنه قوانين حرفية فهو أوسع من ذلك كما فهمه عبد القاهر الجرجانى .

النوع السادس[3] عطف الظاهر على المضمر

وهو من صميم النحو كالنوع الخامس .

النوع السابع[4] التفسير بعد الإبهام

والإبهام دون تفسير يرد كثيرا فى القرآن ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، ، فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وبلاغته فى أن وهم السامع يذهب فيه كل مذهب ويعد من التفسير بعد الإبهام قول القائل ، أعطيته مائة

---

(١) ص ٢٥٤

(٢) ص ٢٦٣ من المثل السائر

(٣) ص ٢٦٧ من المثل السائر

(٤) ص ٢٦٨ من المثل السائر

إلا عشرة ويراها أبلغ من أعطيته تسعين ولا أرى محلا للبلاغة فى هذه الأعداد .

النوع الثامن[1] استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات

فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية ونفى الحيوانية يوجب نفى الإنسانية ولكن نفى الإنسانية لا يوجب نفى الحيوانية وفى هذا الفصل يذكر مثالا جميلا للترقى .

كالقسىّ المعطفات بل الأسـ ـهم مـــبرية بل الأوتار

النوع التاسع[2] التقديم والتأخير .

ومن المعيب فيه تقديم ما حقه التأخير وهو ما سماه غيره معاظلة مثل قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

يمدح بذلك خال الأمير وترتيبه الصحيح « وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا ملك أبو أمه أبوه أى هو خاله » .

العاشر[3] حروف العطف والجر

وهى من النحو وما ذكره من معانيها ليس دليلا إلا على خطأ من يقتصرون فى النحو على حرفية القوانين كما قلت سابقا .

الحادى عشر[4] الخطاب بالجملة الاسمية والفعلية

تحدث عن الفرق بين الجملتين وعن توكيدهما بالمؤكدات المختلفة وانتقد محقا مثال النحاة « والله لأقومنّ » ، وقال إن ذلك لغو من الكلام لأن

---

(١) ص ٢٧٢ من المثل السائر
(٢) ص ٢٧٥ من المثل السائر
(٣) ص ٢٨٣ من المثل السائر
(٤) ص ٢٨٦ من المثل السائر

القيام هنا ليس فيه من الأمر العزيز ولا من الأمر العسير ما يحتاج معه إلى التأكيد ولو قيل والله لأقومن إليك بأسلوب التهديد لكان ذلك واقعا فى موقعه .

الثانى عشر [1] قوة اللفظ لقوة المعنى

وذلك بالعدول عن صيغة إلى صيغة مثل خشن واخشوشن ، قادر ومقتدر ، وقد خالف العلماء بقوله إن « عالم » أبلغ من « عليم » لأن الثانية أشبهت صفة اللازم ككريم ثم تواضع قائلا ولربما كان ما ذهبوا إليه لأمر خفى عنى ولم أطلع عليه ويكفى أن نذكره بقول الله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » فذو علم — على طريقته الهندسية — يساوى صاحب علم ، وصاحب علم يساوى عالم فيصبح المعنى وفوق كل عالم عليم .

كما نذكره يقول الله تعالى . . . والله بكل شىء عليم . . عليم خبير .

الثالث عشر [2] عكس الظاهر

ومعناه نفى الشىء بإثبات . . . مثل « لا ترى الضب بها ينجحر » قد يفهم أن هناك ضبا ينجحر وضبا لا ينجحر ولكن الشاعر يريد أنه لم يكن هناك ضب أصلا فلم يكن هناك انجحار بطبيعة الحال .

وقال الشاعر :

أوتين جلباب الحياء فلن يرى لذيولهن على الطريق غبار

فلم يكن غبار لأنهن لم يكن يمشين أصلا .

وهذا من خصائص الجملة السالبة التى تحمل معنيين .

---

(١) ص ٢٩٠ من المثل السائر

(٢) ص ٢٩٣ منه

الرابع عشر[1] الاستدراج

وهو النوع الوحيد الذى أشار إلى اختراعه إياه فقد استخرجه من القرآن الكريم «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب».

ومنه قوله تعالى «واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا».

وقد علق على الآيتين تعليق الفاهم المتمكن مبينا كيف استدرج الرجل المؤمن آل فرعون . . . وكيف سار إبراهيم بأبيه يستدرجه ليقلع عن دينه .

وهذا النوع يشبه الترقى الذى ذكره فى النوع السابع الذى مثل له بقول الشاعر :

كالقسىّ المعطفات بل الأسـ ـهم مبرية بل الأوتار

الخامس عشر والسادس عشر

تحدث فيهما عن الإيجاز[2] والإطناب[3]

وتحدث عنهما كما تحدث من قبل عن التقديم والتأخير والتشبيه بما

---

(١) ص ٢٩٤ منه

(٢) ص ٢٩٧

(٣) ص ٣٣١

لا يخرج عما ندرسه فى قواعد البلاغة الآن — ولا عجب فى ذلك فقد كان معاصرا للسكاكى واضع علوم البلاغة — ويمتاز هو بعدم الجفاف الذى شاع عند السكاكى ، فقد أحيا نظرياته النقدية بالشواهد الكثيرة الرائعة وبالتحليل والموازنة وحسن العرض .

وألاحظ عليه أنه منذ بدأ الكلام على الصناعة المعنوية يأتى بالأمثلة من القرآن والحديث والشعر ولا يجد أمثلة لنفسه مما كان يملأ به عشرات الصفحات عند ذكره للصناعة اللفظية وأظن ذلك يحدد أسلوبه . . . فهو لم يذكر لنفسه إلا مثالا فى وصف القلم [1] ومثالا فى وصف بستان [2] ثم مثالا ملأ به أربع عشرة صفحة يعارض [3] به كتاباً وتقليداً لعبد الرحيم وكلامه تطويل لا إطناب .

السابع عشر التكرير [4]

وهو فى اللفظ والمعنى ومنـــه مفيد وغير مفيد ، ورأيه أن الحروف لاتزيد فى القرآن كقول النحويين ولكنها تأتى بفائدة ومعنى :- « فلما أن جاء البشير » — أن — تدل على التراخى مثلها فى قوله تعالى « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما » فهى هنا تدل على تباطؤ موسى عند مافكر فى قتل الثانى . . . فلم يسرع كما فعل عند قتل الأول .

وقد أجاز التكرير غير المفيد إذا كان قافية مثل :

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
هلا التمست لنا إن كنت صادقه مالا نعيش به فى الناس أو نشبا

---

(١) ص ٢٤٦ فى التشبيه
(٢) ص ٣٣٨ فى الإطناب
(٣) من ص ٣٤٠ إلى ص ٣٥٤
(٤) ص ٣٥٤

فالبيت الأول فى نظره معيب لأنه كرر العزاء والصبر ومعناهما واحد ولم يرد أحدهما قافية لأن القافية هى الباء ، أما البيت الثانى فليس بمعيب لأن التكرير جاء فى النشب وهو قافية .

وأخالفه فى البيتين فالعزاء يختلف عن الصبر بأنه قد يأتى من الخارج أما الصبر فمن داخل النفس فهما شبه مختلفين . أما المال والنشب فهما شىء واحد كما قال ولكن القافية لا تكفى مبرراً لنأتى بلفظ لا فائدة له وكان على الشاعر أن يبنى القافية على لفظ مفيد فائدة جديدة .

الثامن عشر (١)

الاعتراض ونحن نعده الآن نوعا من الإطناب .

التاسع عشر (٢) الكناية والتعريض

أخذ على السابقين ومنهم الخفاجى خلطهم بينهما فقول امرىء القيس « وسرنا إلى الحسنى ورق كلامنا » تعريض لا كناية كما يقول الخفاجى وقد جعل الكناية جزءاً من الاستعارة وبينهما عموم وخصوص .

وقال عن التعريض إنه اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم لا الوضع الحقيقى .

ويظهر اطلاعه على غير اللغة العربية قوله إنه وجد الكناية والتعريض فى اللغة السريانية فى الإنجيل الذى كان يراه فى أيدى النصارى فى عصره وفى اللغة الفارسية ومما وجده منها « أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل له إن الملك يختلف إلى امرأتك فهجرها لذلك وترك فراشها فأخبرت

---

(١) ص ٣٧٢ منه .
(٢) ص ٣٧٦ منه .

كسرى فدعاه وقال له قد بلغنى أن لك عيناً عذبة وأنك لاتشرب منها فما سبب ذلك . قال أيها الملك بلغنى أن الأسد يردها نخفته فاستحسن كسرى منه هذا الكلام وأسنى عطاءه »[1] .

وكلا النوعين قد اتفق الآن على أنه كناية ولا مانع من بقاء اسم التعريض للنوع الأخير .

وسبب ما يراه من الخلط — فى رأيى — أن الكناية معنى يفهم بعد الكلام سواء أكان حقيقة أم مجازاً فلا مانع أن يكون الكلام استعارة وهو فى نفس الوقت كناية لكن المعنى الحقيقى للفظ حينئذ لا يراد بل يراد المعنى المجازى ثم المعنى الثانى اللازم عنه .

وقوله إن الكناية تدل على جانب الحقيقة وجانب المجاز معا يتعارض مع جعله الكناية جزءاً من الاستعارة لأن الاستعارة لايراد فيها المعنى الحقيقى بل يراد المعنى المجازى وحده .

العشرون المغالطات المعنوية

[وهى التورية] وقد مثل لها من كتابته[2] ومن الشعر ، فمن الشعر قول بعضهم يهجو شاعراً[3] :

وخلطتم بعض القران ببعضه ‌ ‌ ‌ فجعلتم « الشعراء » فى « الأنعام »

وقول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب ابن حنبل ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة النعمان ثم تحول إلى مذهب الشافعى :

من مبلغ عنى الوجيه رسالة ‌ ‌ ‌ وإن كان لا تجدى إليه الرسائل

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ‌ ‌ ‌ وفارقته إذ أعوزتك المآكل

---

(١) ص ٣٩٢ ‌ ‌ (٢) ص ٣٩٤ — ٣٩٦ منه .

(٣) ص ٣٩٢ .

وما اخترت رأى الشافعى تدينا ولكنما تهوى الذى منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فافطن لما أنا قائل

ومالك هو ابن أنس الإمام الرابع ومالك أيضاً خازن النار وما أصدق هذه الأبيات فى وصف المنافقين المتقلبين الذين يميلون مع الريح حيث تميل وما أجدرهم بأن تكون مأواهم النار وبئس القرار .

الحادى والعشرون[1] الأحاجى

وهى الأغاليط من الكلام وتسمى ألغازاً جمع لُغز وهو الطريق الذى يلتوى بسالكه ويشكل عيله وقيل جمع لَغز وهو ميلك بالشىء عن وجهه وقد يسمى المعمى .

وإذا كانت الكناية هى اللفظ الدال على جانب الحقيقة وجانب المجاز فهو يحمل عليهما معا ، والتعريض هو ما يفهم من عرض اللفظ لا من دلالته على حقيقة أو مجاز والمغالطة هى التى تطلق ويراد بها شيئان أحدهما دلالة اللفظ عل معنيين بالاشتراك الوضعى والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه — فاللغز والأحجية كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً ولا يفهم من عرضه . . . . . الخ وتختلف الخواطر فى الإسراع فى فهمه والإبطاء .

الثانى والعشرون[2] المبادىء والافتتاحات

وقد ذكرها كأحد الأركان الخمسة فى الفصل التاسع من المقدمة وهى أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو النثر دالا على المقصود ومن قبيحها قول الشاعرين :

---

(١) ص ٢٩٧ من المثل السائر .

(٢) ص ٣٠٤ من المثل السائر .

«مابال[1] عينك منها الماء يلسكب» و «يا دار غيرك البلى ومحاك[2]» وذلك مشهور كثير عند أبي تمام والمتنبي وغيرهما .

وهنا يعود إلى انتقاصه للصابي في افتتاحاته ومثل له ولنفسه[3] وعلى الرغم من التزامه السجع فأسلوبه لا بأس به والفضل في ذلك لما يملأ به كلامه من معاني القرآن والحديث والشعر .

الثالث والعشرون[4] التخلص

في الشعر والنثر وفي القرآن « . . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين . . . » وأورد أمثلة لنفسه[5] ولغيره[6] .

ومما أورده من الشعر قول أبي تمام :

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت ... منها طلول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى ... أجل وأن أبا الحسين كريم
ما حلت عن سنن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحوم

وقال عنه إنه خروج من غزل إلى مديح أغزل منه وأورد لنفسه قوله لصديق من أهل العراق استحدث مودته ، فكتب إليه يستهديه رطباً !! : —

---

(١) القبح جاء من المواجهة فالشاعر يخاطب نفسه ولكنه أتى القصيدة في مواجهة أمير بعينه رمش فهي تدمع دائما — وقد رد عليه عندما أتى البيت الأول « وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟! وأمر بإبعاده .

(٢) القبح هنا جاء من قبح المناسبة لأن الشاعر ذكر البلى والأطلال في مطلع قصيدة يهنىء فيها بدار جديدة .

(٣) من ص ٤١٢ إلى ص ٤١٧ .

(٤) ص ٤١٧ منه .

(٥) من ص ٢٣٤ إلى ص ٤٢٥ .

(٦) من ص ٤٢٠ إلى ص ٤٢٩ .

« . . وقد قيل إن للمودات طعماً ، كما أن لها وسماً ، وأن ذا اللب يصادق نفساً قبل أن يصادق جسماً . وإنى لأجد لمودة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطعامها وقد أذكرتنى الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها وغير عجيب لمناسبة الأشياء أن يذكر بعضها ببعضها . . » ثم يقول « وهذا من التخلصات البديعة ، فانظر أيها المتأمل كيف سقت الكلام إلى استهداء الرطب وجعلت بعضه آخذا برقاب بعض حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى » !!

الرابع والعشرون[1] التناسب بين المعانى

وهو ثلاثة أقسام :

١ — المطابقة وتسمى البديع وهى فى المعانى ضد التجنيس فى الألفاظ بأن يكون المعنيان ضدين . . . سواد وبياض ، ليل ونهار . . . مأخوذ من طابق البعير إذا وضع رجله موضع يده .

ونراه كما نعهده يعنى برد الاصطلاح إلى معناه اللغوى وأورد أمثلة له[2] .

ويتصل بهذا النوع المؤاخاة فى المعانى وهى ذكر المعنى مع أخيه لا مع الأجنبى ... فيقرن الوصف بما يقرب منه ويلتئم به .

قال الشاعر « . . تكامل فيها الدل والشنب » فلم يناسب ، فالغنج أحسن من الشنب وأنسب ليناسب الدل ، ويذكر مع الشنب اللعس .

وقال آخر : « محدوب الظهر كريم الجد » الصفة الأولى للجسم ، والثانية للنسب ولا التئام بينهما .

---

(١) ص ٤٢٩ منه .

(٢) ص ٤٣٠ منه .

٢ — ومن التناسب صحة التقسيم لافساده [١] وليس ذلك كما يذهب إليه المتكلمون من قسمة عقلية كقولهم :

« الجواهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة أو لا مجتمعة ولا مفترقة أو مجتمعة ومفترقة معاً أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة » .

فهى قسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده . .

وهو هنا يقصد الفلاسفة مع المتكلمين ويدل على معرفته طريقتهم كما ذكرت سابقاً على الرغم من إنكاره عليهم — وهم يستحقون ذلك لإفسادهم الأدب — وفوق هذا فطريقته فى الاعتراض والرد عليه ، « فإن قيل . . » فالجواب عن ذلك : كل هذا يدل على أنه واحد منهم لكنه خارج عليهم ومخالف لهم فى تذوقه الأدب تذوقاً صحيحاً .

٣ — ومن التناسب التفسير وذكر أمثلة من إنشائه وحده [٢] .

---

(١) ذكر من فساد التقسيم قول البحترى .

قف مشوقاً أو مسعداً أو حزيناً   أو معيناً أو عاذراً أو دذولا

فإن المشوق يكون حزيناً ، والمسعد يكون معيناً وكذلك يكون المسعد عاذراً ومن صحيح التقسيم قول البحترى :

غادرتهم أيدى المنيـــة صبحاً   بالقنـا بين ركع وسجود
فرقة للسيوف ينفذ فيها الـ   ـحكم قصداً وفرقة للقيود

(٢) ص ٤٤٥ منها قوله فى كتاب تعزية « ولقد أوحشت منه المعالى كما أوحشت المنازل وآمت المكارم كما آمت الحلائل وعمت لوعة خطبه فما تشتكى ثكالى إلا إلى ثاكل وما أقول فيمن عدمت الأرض منه حياها والمحامد محياها فلو نطق الجماد بلسان أو تصور المعنى لعيان لأعربة تلك عن ظمأ صعيدها وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها . »

الخامس والعشرون[1] الاقتصاد والتفريط فى الإفراط

فالاقتصاد موافقة معنى الكلام المضمر فى العبارة للغرض، والتفريط التقصير عنه كالأعشى حين مدح ملكا بأنه لا يمنع ماعونه وكقول أبى تمام :

ما زال يهذى بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم

والإفراط الإسراف كقول عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

ولكن هذا مستحسن منه ، ومنه قول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

ومن المستهجن قول النابغة :

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها ومن يتعلق حيث علق يفرق

وقول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

السادس والعشرون[2] الاشتقاق

وهذا من مباحث الصرف فكان حقه أن يتركه هناك وقال عنه إنه صغير وكبير فالاشتقاق الصغير اسم الفاعل واسم المفعول : سلم ، سالم ... والكبير تغيير ترتيب حروف الصيغة مثل رقم ، قمر ...

السابع والعشرون[3] التضمين

بمعنى اقتباس النصوص وهو حسن أما التضمين الذى هو عيب فى القافية فشىء آخر بأن يعلق المعنى فى بيت على بيت آخر .

---

(١) ص ٤٤٧ .
(٢) ص ٤٥٥ .
(٣) ص ٤٥٧ .

الثامن العشرون[1] الارصاد

وهو أن يبنى الشاعر شعره على قافية قد أرصدها له وهو فى القرآن ! ! . . . وفى الشعر :

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

وفى هذا الفصل يتحدث ابن الأثير عن شعبذات الحريرى وأمثالها من تأليف رسالة مهملة الحروف ، وأخرى معجمة .. وسمى ذلك شعبذة ومعالجة ومصارعة .

وقد صدق فى رأيه ودل على ذوق سليم ، لكنه يخطئه التوفيق فى رده على الخفاجى[2] الذى قال بعدم استعمال ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين أو معانيهم مما تختص به تلك العلوم ويراه أخطأ فى ذلك ، لأن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وقد سبق لى نقل قول ابن سنان الذى نصح فيه الأديب بأن يلم بالثقافة العامة وأن يأخذ من كل علم بطرف وذلك يلتقى مع الغرض الأخير لابن الأثير ، لكن ابن الأثير يجاوز ذلك فيستشهد على خطأ ابن سنان بأمثال هذا الشعر :

ولقيت كل الفاضلين كأنما ردّ الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً وأتى «فذلك» إذا أتيت مؤخراً

ويعجب للخفاجى قائلا له هل كان المتنبى يترك هذا المعنى الشريف الذى لا يتم إلا بلفظ « فذلك » .

ونحن نقول له نعم كان خيراً له أن يترك تلك اللفظة وليمت معها هذا المعنى الشريف ، لأنه ليس من الشعر فى شىء فهو لا يهز عاطفة ولا يرسم

(١) ص ٤٦٠ .

(٢) ص ٤٦٣ .

صورة جميلة ، وإنما يرسم فكرة رياضية ويستحضر فى الذهن أعداداً وأرقاماً وأشكالا هندسية لا قيمة لها فى الشعر .

ثم هو بهذا القول ناقض نفسه مع أول كلامه فى الكتاب عن لفصاحة عند قوله بعدم استعمال الغريب وأى كلام أغرب من مصطلحات لعلوم عند من ليسوا من أهلها — أم لعل الأدب قديماً كان للخاصة فقط ن يعرفون الهندسة والكلام والفقه والتجارة . . أما غير الخاصة فلعلهم يكونوا يعرفون شيئاً من كل هذا فلم يكن يوجه إليهم الكلام .

التاسع والعشرون[1] التوشيح

وهو بناء القصيدة على قافيتين وليس بذى قيمة كبيرة كقول الحريرى :

يا طالب الدنيا الدنية إنها شرك الردى ، وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غدا ، بعدالها من دار

الثلاثون[2] السرقات الشعرية

وقبل أن ألخص رأيه فى السرقات الشعرية أرانى أوافق الدكتور ى ضيف[3] فى أنه قد حان الوقت لنقضى على قصة السرقات وعيبها تستعمل كلمة التحوير بدلا من السرقة .

فالعبرة فى الفن بجمال الإخراج وجمال الأوضاع والهيئات لا بالإبداع ق الذى قد يصعب تحقيقه ورب فكرة مسبوقة تفوق بعرضها ة مبتكرة لم تسبق .

وفى ذلك قال أبو هلال[4] «المعنى الجيد، جيد وإن كان مسبوقاً إليه،

---

(1) ص ٤٦٥ .
(2) ص ٤٦٦ .
(3) ص ١٧٣ من كتابه الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .
(4) ص ١٤٦ من الصناعتين .

والوسط وسط والردىء ردىء ، وإن لم يكونا مسبوقاً إليهما » .

وابن سنان الخفاجى عندما نقد الأقوال الفاسدة فى نقد الكلام ذكر منها أن يقال بأفضلية المتقدم لمجرد التقدم ، ورد على ذلك بأن الزمان لاقيمة له فالقديم كان جديداً فى وقته والمحدث يصير قديماً فالعبرة بنعوت الألفاظ والمعانى التى ذكرها فى كتابه سر الفصاحة .

ثم ذكر من تلك الأقوال الفاسدة[1] وهو ما أعنيه هنا أن يقال أن فضيلة المتقدمين لسبقهم إلى المعانى ويقول إن هذا لو ثبت لكان فضلا للمتقدمين لا لشعرهم وليس كل من كان أفضل كان شعره أحسن .

وهذا لعمرى رأى سديد من ابن سنان وهو هنا يعتنق مذهب النقد الموضوعى الحديث الذى يهتم بالأدب نفسه ولا يضفى عليه صفات خارجة عنه [إلا ليفهم] من قدم قائله أو سبق غيره إلى فكرته . . . .

فالابتكار من حيث هو ليس صفة فنية بديعة إنما الإبداع هو إخراج الفكرة فى وضع جديد يلفت الأنظار كما كان يفعل البحترى الذى قال فيه ابن الأثير[2] « إنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة فقد أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ فى سلاسة الماء » .

ولم يكن فضل البحترى فى ابتكاره ولكن فى حسن صوغه وروعة فنيته .

وقبله أبو تمام كان « رب معان وصيقل ألباب وأذهان »[3] ، وكان

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٦١ .

(٢) ص ٤٧٠ من المثل السائر .

(٣) المصدر السابق .

كثير الابتكار والغوص على المعنى الجديد ولكن اللفظ كان يخون والعرض الحسن كان يعز عليه .

ويقول الدكتور ابراهيم سلامه [١] « الفنية وبخاصة الأدبية هى استعداد عقلى وإضافات على الأشياء الطبيعية تؤدى إلى الابتكار » ، وقال ميخاييل نعيمه [٢] « ليس يوجد من يخلق شيئاً من لا شىء إلا الله » فالأديب الحق يستطيع أن يصوغ من معنى قديم شيئاً مبتكراً جديداً كما يستطيع الفنان أن يضفى جمالا على شىء لا جمال فيه .

وقد أطلت فى هذا الحديث قبل أن أتكلم عن السرقات الشعرية فى كتاب المثل السائر والواقع أنى أنوى أن أختصر الكلام فى ذلك فالسرقات أمر شائع من قديم . ذكر فى سر الفصاحة وفى الصناعتين وفى العمدة وغيرها .

ثم إن هذه الناحية بالذات عند ابن الأثير قد اهتم بها أستاذى السباعى بيومى وعرضها ذلك العرض الرائع الذى أخرجه لوزارة المعارف فى كتاب المطالعة التوجيهية الذى ندرسه للطلاب . وقد كانت تلك الناحية من الكتاب من نصيبه [٣] ولذلك اكتفى بعرض ملخص لأنواع السرقات وهى :

(١) النسخ وهو أخذ المعنى واللفظ جميعاً أو بمعظم اللفظ مثل قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

---

(١) ص ٣٨ من مقدمته لخطابة أرسطو .

(٢) ص ١٠٣ من الغربال .

(٣) صحيفة دار العلوم العدد الرابع من السنة الرابعة عشرة .

وقول طرفة :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

(ب) المسخ وهو أخذ المعنى وإفساده بالتقصير عنه مثل قول أبي تمام :

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

أخذه المتنبي فقال مشوهاً الصورة وإن لم يشوه المعنى :

يرى أن ما ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

(حـ) السلخ وذكر أنه يقسمه إلى اثنى عشر قسما ولكنه لم يذكر إلا أحد عشر وقد حاولت أن أجد القسم الثانى عشر فى تضاعيف القسم الحادى عشر وهو اتحاد الطريق مع اختلاف المقصد فقد أطال فيه وتكلم فى أثنائه عن الموازنة بين الشعراء كما ذكر أستاذى السباعى بيومى (١) ولكنى وجدت موازنته نوعا من القسم الحادى عشر المذكور ولم أجد القسم الأخير فلعله سقط من النساخ أو لعله لم يدقق كما حصل حين رسم منهج كلامه على الأنواع الثمانية للألفاظ المركبة ثم لم يسر على المنهج الذى رسمه كما سبق أن ذكرت .

وهذه هى أقسام السلخ الأحد عشر :

١ — أن يستخرج من المعنى ما يشبهه مثل أخذ المتنبي قوله :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى فاضل

من قول شاعر الحماسة :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل

٢ — أخذ المعنى دون اللفظ مثل أخذ أبى تمام قوله :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

---

(١) المصدر السابق (صحيفة دار العلوم عدد ٤ سنة ١٤)

من قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

٣ — أخذ المعنى ويسير من اللفظ مثل قول البحترى فى غلام :

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمـ ـر إليه ودون كيد الكبار

سبقه إليه أبو نواس فقال :

لم يخف من كبر عما يراد به من الأمور ولا أزرى من الصغر

٤ — عكس المعنى مثل قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

أخذ المتنبى المعنى وعكسه فقال :

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

٥ — أخذ بعض المعنى مثل قول أبى تمام :

كلف بربّ المجد يعلم أنه لم يُبتدأ عرف إذا لم يتمم

أخذ البحترى بعض معناه فقال :

ومثلك إن أبدى الفعال أعاده وإن صنع المعروف زاد وتمما

٦ — الزيادة على المعنى مثل قول الشاعر :

أذل الحياة وكره الممات وكلا أراه طعاما وبيلا
فإن لم يكن غير إحداهما فسيرا إلى الموت سيرا جميلا

أخذه أبو تمام وزاد عليه الشطر الأخير من قوله :

مثل الموت بين عينيه والذل وكلا رآه خطبا عظيما
ثم صارت به الحمية قدما فأمات العدا ومات كريما

٧ — التعبير عن المعنى بعبارة أحسن من الأولى مثل قول أبى تمام :

جذلان من ظفر حران إن رجعت مخضوبة منكمو أظفاره بدم

أخذه البحترى فقال .

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دماؤها

٨ — سبك المعنى سبكا موجزا مثل قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه تلميذه سلم الخاسر فقال موجزا :

من راقب الناس مات غما وفاز باللــــذة الجسور

٩ — تخصيص العام أو تعميم الخاص مثل قول الأخطل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فهذا عام أخذه أبو تمام فجعله خاصا حين قال :

أألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا ساء ذاك صنيعا

ومن الخاص الذى جعل عاما قول أبى تمام :

ولو حاردت شول عذرت لقاحها ولكن منعت الدر والضرع حافل

أخذه المتنبى فقال :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم كما يؤلم الحرمان من كف رازق

١٠ — مساواة المعنيين مع زيادة فى البيان مثل قول أبى تمام :

هو الصنع إن يعجل فريث وإن يرث فللريث فى بعض المواطن أنفع

أخذه المتنبى فوضحه بمثال ضربه :

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

١١ — اتحاد الطريق مع اختلاف المقصد وقد وازن فى هذا النوع بين مقطوعتين لاميتين لأبى تمام والمتنبى فى رثاء صغير مطلع الأولى : «مجد تأوب طارقا...» ومطلع الثانية : «فإن تك فى قبر فإنك فى الحشا...»

(١) ص ٤٩ من المثل السائر .

وبعد أن أورد أبيات كل منهما قال [1] . فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا وأذكر الفاضل من المفضول فأقول ، أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لهفى على تلك الشواهد فيهما   لو أخرت حتى تكون شمائلا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره   ولكن فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ومنطق الفصل . . . .

وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضاً وذلك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لا مع فضيلة القول وتقدمه . . . . قال أبو الطيب :

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به   فإنك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام :

إن ترز فى طرفى نهار واحد   رزأين هاجا لوعة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفاً لمطية   إلا إذا ماكان وهما بازلا

فإن قول أبى الطيب والشدائد للنصل أكرم لفظاً ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا . . . . .

وذلك النوع الحادى عشر من السلخ هو الذى تحدث فيه عن الموازنة بين الشعراء فيرى الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر العرب

---

(١) ص ٤٨٧ من المثل السائر .

أولا وآخرا ويقول « ولا ينبغى أن يوقف على شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم « امرؤ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب » وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى فلا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء » .

ثم حلل ذلك بما يدل على نظرته الكاملة إلى الأدب من جميع نواحيه حينما رأى القيم الأدبية اللفظية والمعنويه محققة فى هؤلاء الثلاثة مجتمعين « أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى وأما أبو عبادة فرب الألفاظ وديباجتها وسبكها » .

ولذلك شغل بهم عن غيرهم واكتفى فى ثقافته الشعرية بدراسة أدبهم دون سواهم من سائر الشعراء إلا ما علق بذهنه كما قال .

خاتمة المثل السائر

يختم الكتاب بذكر رأيه فى شرف علم البيان ورأيه فى إعجاز القرآن أنه يرجع إليه ولذا فضل النثر على الشعر لأن القرآن المعجز منثور لا منظوم فيقول [١] « إن هذا الفن أشرف الفضائل به فخر النبى فقال : أنا أفصح من نطق بالضاد ، وبه اتصل الإعجاز فالقرآن معجز [٢] بفصاحته لا بمسائل الفقه ولا بمسائل الحساب ولا بمسائل الطب .

والمنثور أشرف .

١ — لأن الإعجاز اتصل به لا بالمنظوم .

٢ — ولأن أسباب النظم أكثر ولذا كان المجيدون فى الشعر أكثر من المجيدين فى الكتابة [٣] . فتعد عدداً كبيراً من الشعراء ولا تجد أكثر من عشرة كتاب مجيدين .

٣ — والكاتب إحدى دعامتى الدولة والشعر فضلة » .

ثم اعترض على الصابى فى حديثه عن الشعر وتمييزه إياه بالغموض المحبوب دون النثر وباستقلال البيت وفى ذكره أغراضا سردها للشعر والنثر ورآها ابن الأثير غير فاصلة .

ويرى هو الفرق بينهما فيما يأتى :

١ — نظم أحدهما . ونثر الآخر .

---

(١) ٤٩٩ من الكتاب

(٢) رأى ابن سنان الخفاجي أن القرآن معجز بالصرفة ولذا يرى بعضه أفصح من بعض (ص ٢١٢ من سر الفصاحة) .

(٣) عصرنا الآن بعكس ذلك .

٢ — من الألفاظ ما يعاب نثرا لا نظما مثل العرمس[١] ، الوجناء[٢] المهمة[٣] .

٣ — إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ومعانى مختلفة فى شعره احتاج إلى الإطالة وقد ينظم مائتى بيت أو أكثر ثم لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير بل فى جزء قليل والكثير ردىء غير مرض .

أما الكاتب فلا يؤتى من قبل ذلك بل يطيل فى الكلام الواحد عشر طبقات من القراطيس ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة سطر وهو مجيد فى كل ذلك .

والحق هنا واضح مع الصابى لا مع ابن الأثير فطبيعة الشعر تختلف عن طبيعة النثر فالطبقات العشر من القراطيس نثراً إنما تكون فى أغراض الدولة من تقليد وعقد بيعة وعهد . . . مما يمكن فيه الاختصار مع ذلك والنثر على العموم من طبيعته التحليل وذلك يقتضى البسط .

وطبيعة الشعر تأبى التعرض لمثل هذه الأغراض لأن الأصل والجمال فى الشعر الإيحاء والرمز وذلك يقتضى الإيجاز .

ثم يشير ابن الأثير إلى شىء رأى العجم يفضلون فيه العرب فى هذه الناحية وهو شعر الملاحم كما نسميه فى العصر الحديث والذى خلا منه الشعر العربى — فيذكر الشاهنامه التى نظمها الفردوسى بالفارسية فى ستين ألف بيت وهى شرح قصص وأحوال وتشتمل على تاريخ الفرس وقال عنها « وهى قرآن القوم . . . ليس فى لغتهم أفصح منه وهو لا يوجد فى لغة العرب على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها مع أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من البحر[٤] .

وأنهى كلامه بالصلاة على النبي وصحبه إلى يوم الدين .

---

(١) الصخرة والناقة الصلبة (٢) الناقة القوية (٣) الصحراء .

(٤) ص ٥٠٣ وهى الصفحة الأخيرة من النسخة التى اعتمدت عليها طبع بولاق سنة ١٢٨٢ هـ توافق سنة ١٨٩٩ م تقريبا

(٤)
بعد الرحلة

والآن بعد هذه الرحلة الطويلة فى أوائل القرن السابع الهجرى مع صديق ضياء الدين أودعه ليستقر فى مكانه بمشهد موسى بن جعفر ببغداد معتذراً عما أكون قدمت إليه من إساءة فى هذه الصحبة فلا شك أننى لم أرع حق المجاملة حين كنت أنقده فأعنف فى النقد أحيانا أو أنصر رأى غيره على رأيه أحيانا أخرى .

ولكن لا شك أيضاً فى أنه مسئول نوعاما عن هذا العنف فإن الرفيق يصطنع أخلاق رفيقه وقد اصطنعت خلقه حين كان يعنف فى مهاجمة الأدباء فكنت كذلك — أحيانا — غير رفيق به .

وإن كان هو قد اكتسب بعنفه عداوة الناس فلقد كان وزيراً يعطى ويمنع ويرفع ويضع فلما زال عنه سلطان الوزارة هموا بقتله — فلا أخشى أنا عداء أحد فلست وزيراً وليس لى سلطان وإنما أنا خادم للعلم أبدى فيه رأيى كما أعتقد وإن خالفت حق الصحبة .

ولكن ليس معنى هذا أن نتيجة هذه الرحلة هى سوء رأيى فى ابن الأثير . كلا والله ، فإنى به لجد معجب وما ذكرته عنه ليس إلا نقدات يسيرة بالنسبة إلى فضله العظيم فى كتابه العظيم .

فكتابه يعتبر الخطوة الأخيرة لاكتمال النقد العربى المبنى على القواعد الصحيحة والذوق السليم .

أما الخطوة الأولى فكانت من الجاحظ فى تدوينه بعض المصطلحات البيانية والشواهد الكثيرة فى البيان والتبيين .

ثم تليها خطوة ابن المعتز فى تدوينه مصطلحات البيان وجمعه أقسامه

فى كتابه « البديع » وبيانه أنها ليست من اختراع أمثال بشار وأبى نواس كما يدعون بل هى فى كلام العرب وفى القرآن .

ثم كان أبو هلال فى الصناعتين وابن رشيق فى العمدة وابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة وبجوارهم الآمدى فى الموازنة والقاضى الجرجانى فى الوساطة كان كل أولئك الخطوة الواسعة التالية لخطوة ابن المعتز .

ثم كانت الخطوة الوائبة الجبارة لعبد القاهر الجرجانى فى الدلائل والأسرار .

ثم جاء ابن الأثير خاتمة المطاف فى هذا الطريق القويم الذى يختلف عن الطريق الآخر الذى سار فيه معاصره السكاكى واضع علوم البلاغة فى قواعد جافة فى كتابه مفتاح العلوم ثم جاء القزوينى فى التلخيص ثم شراح هذا التلخيص فزادوا تلك القواعد جفافا بنظراتهم الضيقة .

وكان الفرق بين ابن الأثير وبين هؤلاء هو عدم اعتماده على القواعد وحدها بل هو يعتمد على الذوق أيضاً ثم إنه لم يكن ينظر إلى الأدب والبلاغة نظرتهم الفلسفية الجافة بل كان يكره الفلاسفة والمتكلمين ويحمل عليهم فى كتابه كما ذكرت .

ويمتاز عنهم فوق ذلك بأنه أشاع فى كتابه حياة خصبة باعتماده على الأمثلة والشواهد الكثيرة التى توضح القاعدة لمن يهتم بالقاعدة وتمتع القلب لمن يريد تذوق الأدب .

ثم فى الكتاب نظرات سبق بها عصره واتفق فيها مع أحدث نظريات الأدب وتذوقه كما أشرت إلى ذلك فى مواضعه .

وفى الكتاب طرق عملية لتعليم الأدب والتخرج فيه منها حل معانى الشعر والحديث والقرآن الكريم لمن يريد أن يكون مقلداً أو أن يكون إماما مجتهداً .

وفيه نظرات صادقة وتقدير صحيح لآراء السابقين وإن كان التوفيق قد يخطئه أحيانا فى عرضه آراءهم لكن ذلك لا يطعن فى قدرته واستقلاله.

ثم فى الكتاب فوق ذلك تقرير لنظرية إعجاز القرآن بفصاحته وهو أوسع كتاب تعرض لهذه المسألة عمليا ولم يكتف بإثباتها نظريا بالاستدلال الذى تفوق فيه عبد القاهر.

ففى كل نوع من أنواع الصناعة اللفظية والمعنوية كان يذكر أمثلة من القرآن ويشرح المراد منها فيصيب غرضين : تجلية مسألة الإعجاز عمليا ، وتدريب من يريد تعلم صناعة البيان فوق ذلك.

وأخيرا فالكتاب سجل تاريخى للأدب فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع بما أورده من أمثلة كثيرة له ولصديقه عبد الرحيم صاحب الطريقة الفاضلية ومن يستعرض فيه الأمثلة والشواهد منسوبة إلى عصورها حتى عصره يستطيع أن يؤرخ للأدب العربى والنقد فى أكثر من ثمانية قرون مستعينا بنظرات ابن الأثير الصادقة فى الحكم على الأدباء والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وفضل الكتاب بعد ذلك لا حد له ولا قدرة لى على الإحاطة بكل فضائله من أول دراسة له.

ولعلى لو فعلت — كما كان يفعل فى استخراج معانى الآيات القرآنية فقرأت كتابه مرات أخرى — أخرج منه فى كل مرة بجديد كما كان يستخرج فى كل مرة من آيات القرآن معانى جديدة.

ولله ولتنزيله الكريم المثل الأعلى والله الموفق ؟

تم البحث فى أغسطس سنة ١٩٥١
تم الطبع فى أغسطس سنة ١٩٥٤

أحمد محمد عنبر
المدرس بحلوان الثانوية القديمة

مراجع هذا البحث

كتاب المثل السائر : لابن الأثير طبع بولاق سنة ١٢٨٢هـ الموافق سنة ١٨٦٦م تقريبا .
« قضية الأدب » : أحمد عنبر
سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى
الموازنة بين الطائيين : الآمدى
العمدة : ابن رشيق
كتاب الصناعتين : لأبى هلال العسكرى
دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى
البيان والتبيين : الجاحظ
وفيات الأعيان : ابن خلكان
صحيفة دار العلوم : العدد الرابع من السنة الرابعة عشرة «السباعى بيومى»
مقدمة الخطابة لأرسطو : الدكتور إبراهيم سلامة
الغربال : ميخائيل نعيمة
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : الدكتور شوقى ضيف
الأصوات اللغوية : الدكتور إبراهيم أنيس
القاموس المحيط : الفيروزابادى (فى مادتى جزر ، المليح)
محاضرة عن أثر الدراسات القرآنية فى تطور النقد العربى : الأستاذ محمد خلف الله فى ١٩٥١/٥/٢٤ بنادى دار العلوم .

الفهـــرس

للمؤلف